روايتان

عبد النبي فرج

الحروب الأخيرة للعبيد

ريح فبراير

الحضارة العربية

الحروب الأخيرة للعبيد

رواية

عبد النبي فرج

الطبعة الثانية ٢٠١٩

الحروب الأخيرة للعبيد

رواية

قاطع الطريق

(١)

قفز على الحمار، وناولته حبل الجاموسة وسار، أبي ينادني كلما تلكأت حتى نسيني، فانحرفت في طريق مهجور، لا تستخدم للسير إلا خلال شهري جمع التين، سحبت سيجارة فرط وأشعلتها، براح رائق مع اختفاء شمس طوبة، ولم يعد سوى صقيع يتدفق في الكون، لهب أحمد متجمد ملتصق بالسماء، وسحب قاتمة تتشكل على هيئة كائنات موحشة، توقظ الهلاوس والخيالات بداخلي، مخاوف تتشعب داخلي، يغذيها الصمت، والوحدة، أحاول تذكر أغنية، أو فيلم، ولكن لا فائدة، خيالي يؤج بمشاهدة أشباح وجنيات وزواحف سامة غادرة، تنقض بعنف عليّ، ورغم إن هذه الخيالات تؤرقني وتدمر أعصابي إلا أنني استمر في السير بمفردي، هناك متعة أنا تكون وحدك مع الحلم. مع مساحات خضراء ممتدة خالية من البشر، الخلاء يبث فيّ فرحًا ما، أتذكر الكتابة.

الزمن يمرُّ ولم يتغير شيء، لم أتقدم خطوة إلى الأمام، العوائق تخنق أي حلم بكتابة مختلفة تمامًا. على الأقل تليق بهزائمنا التي لم نعد قادرين إلى إخفائها. ترتيبها بهدوء وتأملها ... كيف نتأمل؟ كل شيء يمر في حياة البشر، المساء الجميل، القدر، الغناء، الرقص، الفرح، الحزن... هراء، الجسد المسحوق تحت وطأة تحميل الجرار، لا يمكن أن يترك العقل ليتأمل شيئًا، أن ينصت لشيء، لا يرى في الكون سوى رغبة عارمة، في الاستغراق

فـي النوم، لكي يكون لدية القدرة على الاستمرار، لذلك في المستقبل سيستغل كل أوقات الفراغ في النوم، في الكسل، الاستمتاع بدفء السرير.

يجب أن أوقف كل ذلك لكيلا أشعر بالمرارة، يجب أن أترك هراء الماضي والمستقبل لكي أفرح بانسجامي مع الكون.

الآن، واستغرقت حتى تنبهت لوجوده، يمسك مقود الحمار، وبجواره أكوام البرسيم متناثرة، ينظر في اتجاهات عدة دون أن يراني. الحمار يحرن ويضرب برجله في الأرض. ويرفس بسبب الذباب الكثيف الذي يتجمع حول جروح منتشرة حول ضفر البرزعة أو حول الحزام، وينهش فيها.

أهل البلد نسجوا حوله الأساطير، وينظرون إليه بنوع من الكره، الممزوج بخوف دفين تراكم مع السنين، مجرم عتيد لم يقبض عليه مرة واحدة، بسبب الحماية الذي كان يكفلها له ثري من عائلة إقطاعية، كانت تمارس الهيمنة على أهل البلدة، كما أن البلدة لم يكن أحد يجرؤ أن يتهمه، رغم أنه من يسرق الموز، ومن يسرق العنب، ومن يحرق ضغينة، أو لصالح البيه، يعمل وحده. حاول البيه مرارًا أن يضم إليه بعض اللصوص وقاطعي الطريق لم يقبل إلا بموسى، الذي رفض ثم هب واقفًا، في مواجهة البيه: أنا مش من رجلتك أنا راجل وحدي، أنا من عائلة، ولا أنت ناسي، ثم سحب جدر الخيرزان، وسار وسط الحقول. لف شبل سيجارة والبيه تنهد في نفاد صبر، إلى أن قال شبل:

- معلش الأيد اللي ما تقدرش تقطعها تبوسها ولا أيه؟

أحمر وجه البيه المقلبظ وهو يكتم غضبًا وحقدًا، لا يعرف مقداره سوى شبل!!

- تعال.

سارا جوار بعضهما على الجسر.

- يعني ما فيش حل...؟

- الحل في أيد ربك.

- سرح شبل في الفضاء وتساءل.

كانت علاقته بموسى ملتبسة ولم يكن يعرف هل يحب موسى أم يكرهه؟ وإن كان يحبه، لماذا كان يغذي الحقد والكراهية في نفس البيه ويوغر صدره، لكي يقوم بقتله والتخلص منه؟ ولماذا أظهر له مودة وحبًا لا ينكر؟ ورغم ذلك يتسلل جزء منه رغبة في التخلص منه! قد يكون بسبب أنه الوحيد الذي يشعره أنه لا يساوي في الحياة شيء، فقط مجرد كلب بلدي يسير وراء سيده؛ قيمته الوحيدة في وجوده وراءه يهز ذيله، في أن يكون يده التي تبطش، تقتل، تحرق! موسى الوحيد الذي يسير جوار البيه كتفًا بكتف، فتوة عصاه لا تخطئ! أما شبل فعكس ذلك. كل شيء في الظلام.

الليل ستر والنهار فضيحة.

"حتى لو سبَّني أحد، لا أرد عليه، أظل أتحايل حتى أمر من أمامه. اعرف قدرتك تحفظ كرامتك، تدخل خناقة وتضرب كف وتنضرب عشرة، تبقى خائب الرجا.

مش كل الناس عندها عرق الصبا مثل موسى، صحته تساعده لذلك يقف في عز النهار رافعًا عصاه أمام بلد.

تنبه علي صوت البيه؟

- أنت بتحبه يا شبل؟

قال شبل: المحبة دي بتاعة ربنا، ثم صب الشاي وناول البيه، أشرب، كل عقده ولها ألف حل.

أيدك ترتعش يا شبل.

هي فين؟

كور قبضته وأخذ يضرب في كف يده: باين علينا عجزنا.

كل سن له حلاوته، وله رغباته، وله ضغائنه.

ماذا لو لم يكن شيء اسمه موسى الكومي موجود؟ لم يخلقه ألاه ـ عدم ـ هل كان سيتغير شيء؟ أم إن حياة الإنسان معشقة على قضبان حديد، جبري، لذلك كان يجب أن يوجد موسى لكي يكون هناك شبل، موسى خلق شبل، أم شبل خلق موسى ليس مهم، المهم أنهم يدورون في حلقة، جعلت شبل الذي يكبر موسى في السن يخرج عن روحه، كان شبل راسخ كالجبل، وتد مغروس في حجر لا يستطيع أحد أن يخلعه بسهولة، لذلك كان داخله يغلي بنار أصابته بالجنون لدرجة أنه كان يفكر أن يحرق البلدة بمن فيها، أو يحمل السلاح، ويظل يطلق الرصاص في قلب موسى الكومي، حتى يرديه جثه هامدة ليصمت إلى الأبد، نار جعلته يجرى كمخبول على الجسور المقطوعة من الناس في ليل أسود يصرخ:

أنا شبل الكرمي... يا بلد وسخة... يا بلد مفطورة على الجبن!!

لم يفعل شيء تجاهي فقط مجرد وجوده يخلق وحش مسعور داخلي.

حاول أن يخرج الغل الذي بداخله يفكر، ماذا يريد بالضبط ومن العدو الحقيقي هل هو البيه الذي خصاه، وجعله تابع، أم موسى الشهم الذي يعري نفسه الوضيعة، أم ذاته العدو الحقيقي، أم مسار حياته القدري، دون جدوى، داخله غضب، غضب وأسى لا يعرف مصدرة، وكأنه يريد أن ينزع جلده ويخلق جلد وحياة أخرى، رغم علمه أن ذلك مستحيل، وإن حياته تسير في منحدر،

حتى يموت ويتلاشى، ولا يمكن أي قوة في العالم أن تغير هذا المسار اندفعت إلى ماكينة المياه، وخلع ملابسه حتى أصبح عاريًا تمامًا. صب زيتًا محروقًا من الماكينة على رأسي، وسار متوجهًا ناحية القصر الذي كان مغلقًا، نزل تحت شجرة موز، وسحب الفأس الحديد الذي يستعملها الأُجَراءُ في خلع الموز العيان ونزع الشباك ودخل غرفة البيه الذي ينام فيها، وأشعل النور، فقام فزعًا، والست صرخت، ولم يستطع أن يقوم من مكانه، إلى أن أشعل النار في القصر وذبح البهائم. واختفى هاربًا في بلاد اللّٰه إلى أن عرف البيه مكانه وأعطاه الأمان في مقابل موت موسى.

قابلت شبل وهو في شيخوخته، وأنا شاب صغير يمر بمراحل مراهقة لا تريد أن تنتهي لذلك كنت كثير الأسئلة أحاول أن استبطن جوهرة، أو أعرف أسراره.

قال لي: إنه بكى مرتان، المرة الأولى، يوم أن وقفت كل البلدة مع المرشح الصالح الذي لم يتورط في ظلم أهل البلدة ضد البيه، في انتخابات العمودية وعندما فاز الصالح ذاب وسط الجموع، وهتف للمرشح الفائز، وبعد ذلك قال: أنا عملت كده ليه؟ والمرة الثانية، عندما رأى موسى الكومي مرمي في الصحراء والبلطة مغروسة في صدره، وجسمه قد مزع، ويده بها قلب أحد أعدائه. كان جسمي يرتعش وأنا أجري وسط الصحراء أنادي موسى الذي لا يجيبني حتى سقط من التعب وظللت أيامًا غارقًا في الحمى، ثم توقف فجأة وكأنه ندم على اعترافه لي:

-أنت تشعر إن الناس بتكرهك.

- تشعر، أنت بتكلمني بالنحوي، يا بني البلد دي عايزه كده، دي بلد تخاف ما تختشيش، أنا مش قنطرة عشان الناس تدوس عليها. ثم أشار لي بنفاد صبره بعد أن لسعت السيجارة يده.

- اسكت... اسكت اللي باع خير من اللي اشترى.

ثم انطو على ذاته، وأخرج علبة الدخان، وأخذ يلف سيجارة، ثم أشعلها ونسيني تمامًا. أما أن فقد خبرته وعرفت أنني لو تكلمت سيزوم ويتركني ويذهب إلى أن عاود الكلام.

"البيه يكره الوحدة، ملول، يحب أن يجلس في عزوة كبيرة من أهله، وناس غلابة موجودة علشان يضحك عليها. وكان لذة حياته بعد ما تاب وحج بيت ربنا هو التنصت على خلق الله، أن يعرف كل كبيرة وصغيرة في البلدة، وكان هناك ناس مخصوص في جلب هذه الأخبار ويحصلون على راتب لذلك أو يلقون بنكت وحكايات طريفة تضحك البيه، وتجعله يضيع النهار، القعدة الطويلة وحشه، وهو منذ أصيب بالمرض، لا يخرج من السرايا إلا مرات نادرة.

"كنا قاعدين أنا وهو فقط وحاول أن يجر معي كلام وأنا ملتزم الصمت.

- قم يا شبل وأنتا قاعدتك ما تلذش.

النهار طويل سرت وراءه بين أشجار الموز، من غيط إلى آخر، بدون صوت نتصنت على الفلاحين في الغيطان، إلى أن سمعنا صوتًا، اقتربنا من الصوت. كان صوت عبد الفتاح أبو إسماعيل يورق الموز وبجواره ابن أخته. كان رجلًا ضخمًا طويلًا وصوته عال. وجلس البيه على الأرض وأنا جواره ننصت لحوارهم. - بيه أيه وزفت إيه. البلد دي وسخة وسكته على الضيم، والرجل ده مش لاقى حد يقف قبالة، راجل شارب من لبن أمه بصحيح، يقف قصاده، أنا مش دافع المسنية على الطلاق ما أنا دافع المسنية، يحرص زرعنا ليه. على الطلاق أضربه ميت طلقة أخرمه، كفاية أهالينا ماتت مقهورة، أنت ما توعاش لحاجة، شفت بعيني، نزلوا

عطيـة ابن سـيد أحمد من علـى الحمار وقتلوا الحمـار ورموه في السـلاحليك لحد ما أتجن ومات بعد شـهر، دول جبارين! حرقوا بيوت وسرقوا مواشي وسموا بشر! كان عبد الفتاح عصبي يترك المكشط مغروس في ساق شجرة موز، ويشد في ياقة ابن أخته الذي رأى البيه فأخذ يرد. لا عيب لا عيب بطريقة واحدة.

لـم يتوقـف عبد الفتـاح إلا ويد البيه تقبض على المكشـط، وتكشط ساق الشجرة فتوسع مساحة تتسلل منها الشمس، فبال على نفسـه. أزاح شبل البيه وضرب عبد الفتاح ست كفوف على وجهـه. ظـل بعدها فتـرة طويلة لا يـرى. وآخر النهـار كان باعت المسـنية وخمس صبائط موز للبيه كمان، وقبل يد شـبل وحمد ربنا إلا جت على قد كده.

لما رآني أشـاح بنظرة عني وأنا أتجاوز بتشفّي. ثم توقفت وأنا أحس أن هذه ليست صدفة دفعتني إليها الظروف، بل قدر يضيف لي تجارب لم أعيشها تصلح كمادة للكتابة بعد ذلك، توقفت، ظهره تجاهي وأعلم أنه يراني، كشر صموت.

عالمي بسـيط وخبرتي ضحلـة، أريد أن أهرب من هذا العالم المحدود المباشر. أريد عالمًا ثريًا، يتيح لي ترتيب المشهد بروية، صناعة رواية كما أراها في ذهني يختلط فيه الأسطوري بالواقعي بالمتخيل، عالمًا غير محدود، ورغم ذلك أعلم أن الكتابة ليست بالجبر، ولكنه فيض، تدفق وأنا عالق في هذا المكان البائس لا يسـاعد في إشـعال مخيلة، أو بناء عقلي ولا إرادة قوية تجعلني مثابر بل فرد خامل يخوض في غائط بدون أمل، لا أستطيع القفز على ظروفي الحياتية، والثقافية، وأنني بهلوان فاشل.

تجاوز السبعين، قصير، وجهه مدور كبيضة، عيناه زرقاوان / وجهـه يوحـى بالطيبة حتى تنظر إلى عينيه. عين شرسـة تجمع

كل العنف والشرور كبئر تجمع وتنزح الذي بداخله، أتساءل بمرارة العاجز، لماذا أنا مدفوع نحو عالم مباشر سقط حضاريًا وفي سبيله إلى التحول إلى نوع من الفلكلور!

حيرتي ككاتب... حيرتي كإنسان... أنا مدفوع في طريق وعر، بائس بلا أمل في شيء أو مكسب ما!

وبعدين. إيه الحكاية!

يرتدى عمامة ملفوفة بإحكام حول رأسه، والخف الذي يلبسه في قدمه موضوع على حد الأرض، قفزت الخزان وخضت في رعية البرسيم إلى أن وصلت إليه... الكون بدأ يعوم في بركة من العتمة.

إيه يا عم شبل. الحمار تعباك؟ لم يلتفت إليّ البرغوتة معفرتاها، نتش الحمار التي تتحرك في عصبية وترفس في وحشية، أربكته فأخذ فيما يشبه الاعتذار يضرب الحمار، بغل وقسوة ظهرت جلية في عينيه اللتين يظهر منهما ما يشبه الجنون، حتى كاد بطن الحمار يلتصق بالأرض، ثم لف الحبل على يديه ولجمها وأخذ يشد بالحبل حتى شلب الدم من شدقيها، ثم بدأ ينهج والحمار سيطرت على جسمها.

- آه أكل ومرعة. والله لأعدمك العافية.

أخذت أناوله البرسيم حتى انتهى من رصه على الحمار، ثم وقف ساندًا البرسيم وأخرج سيجارة ملفوفة وناولني واحدة، رفضت في حدة وتصميم لا... لا يا عم شبل! نظر إلي في حدة والسيجارة في يده، فأخذتها راسمًا على وجهي خجلًا ما ـ ممثل سيظل يركن داخلي يطل كل فترة. أعمل إيه؟

أخرجت مشط الكبريت من جيبي وأشعلت سيجارة له ثم أشعلت لي.

- ابن مين؟

- ابن محمد الفلاح. محمد فاروق الفلاح.

- خالك موسى الكومي؟

- آه قلتها بتردد لا أعرف لماذا؟

والله يرحمه كان رجل، ثم مسك مقود الحمار منه وأمسكني من ياقة الجلابية وأخذ يهزني حتى أنني خفت منه، وصوته يخرج ناعمًا متواطئًا وخبيثًا. دا كان راجل رجالته قليلة، ألف رحمة ونور، ثم استند على كتفي وقفز على الحمار وأنا أسنده حتى تخطى الخزان.

أبقى تعالى خذ شويت لبن من أيد خالتك، وقول لأبوك هو مين اللي كان ببدور أميه وطحين.

ثم أخذ يضحك ويزفر، والحمار يكاد يرميه من عليها وكأن ملبوسه بالشيطان، وعندما قلت لأبي ما قاله شبل قال: اتلهي على أمك! وأمي أخذت تضحك حتى أحمر وجهها وسقطت اللقمة من فمها. وأبي يقرض أسنانه ويكتم غضبه قوية تحتاجه!

ترك اللقمة واستند على الحائط في انكسار!

- فرحانة قوى!

- هو مش أبوك اللي كان بيدور أميه وطحين؟

رد أبي بحدة. لا دا أبويا اللي زرع السردين في حوش الأربعين!

وقفت أمي على ركبتها.

- إحنا طول عمرنا أسياد البلد وأنت عارف كده!

- بلاش قنزحة، وأشار بيده في قرف!

- الله يرحمك يابا أنت وموسى الكومي، ثم اندفعت في البكاء.

أدار أبي ظهره وأخذ يقلب في القوالح حتى صفت، ووضع أبي

البراد على النار، وأمي مسحت دموعها بالطرحة وفردت اللحاف على رجلها وأخذت تصطاد البراغيث وتسحقها بين أظافرها إلى أن قال أبي. الواد دا عامل زي الغراب ثم انتظر زاعقًا في.

- مين اللي قال الكلام ده يا له!

ضحكت أمي مرة أخرى فنظر أبي إليها مخففًا من حدة كلامه. ثم لان!

- أنا في موريستان، أنت خالطه عبط على العيال كلهم هيعبطوني، ويخلوني أمسك صاجات وألف حول البلد! ثم سكت.

الله يرحمك يابا، عاش ضارب الدنيا طبنجة يأكل ويشرب معسل، ويدق على الطبلة ويغني طول الليل مواويل عن البحر، والصيد وعشق البنات السمرة، كان يحب النسوان مووت، حب طاهر، ويفضل يجري وراء الواحدة لحد ما ينزل في الغريق يرجع جري! كان فاتح دكان ويروح يجيب الشاي والسكر من أشمون على الحمارة ويلعب كوتشينة مع البيه ويتغلب كمان ليه؟ لكي لا يوغر صدره عليه ويدفع حق الشاي والسكر والقصب، وفي يوم وهو عائد بشوال السكر على الجمار بعد صلاة المغرب ولم يكن يعلم أن منسوب المياه قد زاد فالسكر عام منه، قام خرم الشوال وأخذ يمص ويستحلب السكر، ولما خرج من البحر والسكر والشاي عام في البحر والحمارة أخذها التيار، ظل يرقص ويغني "السكر عام في البحر، السكر حلى البحر" مؤتمن يدخل البيوت في أي وقت، لم يكن أحد يكرهه يدور في المولد، مولد سيدي عيسى موسى، أبو الحديد، الست زاهية، أحمد البدوي، الحسين. وله أحباب في كل مكان، بلسانه الحلو. يسحب ترابيزة من أي بيت وعدة ويشتري الشاي ويعمل ناصبه، نصبة صغيرة يبيع فيها الشاي، والسكر والكازوزة،

ويسكر في الذكر، ويغنى، ويأتي لأمي بشعر البنات والحمص والحلويات، ويوزع على الجيران.

المشكلة بتاعة أبويا بصحيح، إنه كان يخاف من العتمة، ولما الناس عرفت مده، استغلوا الحكاية دي وكانوا يعملوا فيه مقالب لا تنتهي، حتى إنه كان عندما يسهر في بيت أي شخص يشترط عليه أن يوصله إلى البيت لحد ما يدخل الأوضة. وفي يوم، أمي اشترت جاموسة واللصوص دخلوا البيت وسحبوها أمامه، ولم يستطع أن يزعق أو يقول شيء! وفي النهار ذهب إلى العمدة وقال له إن فلان سرق الجاموسة في آخر الليل، في الميعاد نفسه كانت الجاموسة في البيت... لا يخلو مجلس من النكات التي فعلها، وكيف فعل كذا، إلى أن كان العمدة والبيه موجودين في الدكان وراهنوا أبي على مبلغ كبير حتى يذهب إلى المقابر ويأتي بفرع صبار الأخضر، كانت الحاشية تسخر من جبن أبي وضعفه إلى أن وافق على الرهان، لم يكن يدري لم يفكر، المرء يدرك قدره ورغم ذلك يِنْدَفع إليه، قام بحماس وقد اعتبر أن المسألة تمس الكرامة، وأن رجولته أصبحت محط اختبار أمام نفسه، أهل البلدة، أمام اللّه الذي يؤمن به ويعرف، إنه لم يؤذي أحدًا طوال عمره لذلك يثق أنه سيقف بجواره ويثبت قلبه، خرج من البيت، الشوارع مظلمة، لا أحد في الطرقات فقط يسير مهتديًا على ضوء نجمات متناثرة فوق، إلى أن وصل إلى المقابل، كان يحمل فأسًا، لم يحملها قبل ذلك قط، وشوالاً، سار مسافة محدودة بين الشواهد ثم فتح مقبرة، ودخل فيها ولم العظام، وهو يخرج أحس، أن شيئًا ينسحب منه، قفز خارجًا من المكان، يجتاحه رعبًا عنيفًا.. يجرى في الشوارع المعتمة ويحس أن العالم كله يجرى وراءه، أقدام تتبعه تكاد تدهسه، سقطت الطاقية وهو مندفع كالريح حتى انكفئ على وجهه وطار الشوال، حاول

أن يقـوم ولكن لم يسـتطع فقـد كان ألم سـاقه لا يطاق، أخذ يجرجر نفسه على يده حتى وصل للشوال، سحبه واحتضنه، وقام نافضًا جلبابه ثم تحامل على نفسه وأخذ يسير وهو يعرج حتى دخل البيت ارتدى طاقية بدل التي سقطت وخرج إليهم، دخل الدكان ورمـى العظام على الحصير وكسـب الرهان، وأخذ يسـخر من الحاضرين، كل الحاضرين، وقد حزموه وصمم على أن يرقص بالعصا، وعندما انفض السامر، أغلق الدكان ودخل البيت وهو يزعـق من الألم الـذي لم يعد يطيقه، قابلته السـيدة الجليلة على صدرهـا، كان مغمورًا بالعرق، خلعت جلبابه وأخذت تتحسـس صدره، وخلعت الطاقية لتمسح العرق بشالها الحرير، وتقرأ سورة الفاتحـة والإخـلاص ودموعه تنهمر على وجههـا الوضيء وصوت يخرج منه مكسور:

- حا تتهجلي بدري يا كعب الخير.

وبعـد فتـرة أراحت رأسـه علـى المخدة وجـاءت باللمبـة نمرة عشـرة، وقربت نورها من وجهه فتأكد لهـا أنه قد مات...! جف العرق وتحول وجهه إلى الأصفر الحاد... أغمضت عينيه ثم أخذت تبكي بصوت عال.

قالت أمي:

- أُمال مش طالع لأبوك ليه؟ دائمًا شايل الهم!!

- هو حد يطلع لأبوه

ثم سكت فجأة... وأخذ ينظر إلى السقف وهُيِّئ لي أن دموعًا تجمعت في عين أبي الذي زفر فجأة:

- اللّه يرحمك - يا أمي...

ثم قام وسـحب المصلية... وأخذ يصلي إلى انتهى من الصلاة ثم أخذ يدعو بصوت واطئ في أول الأمر ثم أخذ صوته يعلو، اللّه

يرحمك يا أمي، حتى إنني مللت وعلمت أنه لن ينتهي أبدًا ، فقمت خارجًا من البيت وظللت ساهرًا مع أصدقائي حتى منتصف الليل ثم عدت مرة أخرى أضاءت اللمبة وظللت أقرأ حتى تعبت ولم أعد قادرًا على فتح عيني فأغمضتها والكتاب على وجهي... وما بين اليقظة والنوم أظل خلالهما أحلم بأرواح حرة... نلعب معًا... نطير في الهواء... نغني... نرقص... لا يحدونا شيء.

أسحبت البطانية بعد أن أحس البرودة تجتاحني أطويها مرتين ثم أشدها علي كما كنت أفعل في مدرسة القومية في الزمالك حيث كنت أسكن في غرفة بالدور الخامس في شتاء ثمانين والجو شديد البرودة... وعندما قلت لأبي: إنني أريد بطانية... صاح فيّ: خليك راجل... طبعًا لم أدر ما العلاقة بين الجو شديد البرودة والرجولة؟ أين الجلد والصلابة وأنت نائم، وعندما قلت لأمي، فأشارت لي أن أذهب إلى خالي سعد ، الذي قفز من على السرير وأخذ يزعق في وكأنني سببته!!

أمك فكراني بأغرف من البحر وأنا وريا عيال صغيرة عايز أربيها أنا اتخنقت خلاص... ديك الورث يا أخي!! انسحبت من الغرفة ، وأنا أمنع الدموع لكي لا تتجمع وعندما خرجت وجدت خالي سعد ورائي بالبطانية خذ:

أنت زعلت؟ أوع تقول لأمك.

ورغم أن البطانية كانت ثقيلة ولكن ظل الصقيع يحاصرني حتى إنني كنت أنام على ألواح الصاج وأفرد المرتبة عليّ حتى أحس بالدفء الذي يغريني بممارسة العادة السرية بشراهة لكي أستغرق في النوم حتى تدفع الباب علي جيوش النمل الأسود الشرس... تندفع نحوي وتغرس أسنانها الصغيرة في جسمي ساعتها أحس برعبي يبلغ مداه... أقوم صارخًا وبحلقي مرارة من

كوني خائفًا!!

أندفع في الثلث الأخير من الليل خائفًا من أن أخاف... أجري وسط حقول البطيخ، أتلف فيها، أحرق الأخصاص المنتشرة على رؤوس الأرض وسط أشجار التين أضرب بالبلطة حتى أتعب... أسير في طرق وعرة وأصوات الكلاب والديابة، تخرق أذني... أعود ثانية وأشعر أن شيئًا تسرب إلى روحي، خوفًا ما، جرثومة مغروسة داخلي تحول بيني وبين الحياة، تسحب الحياة مني، وتجعلني مستسلمًا لكل أنواع الظلم التي تحيط بي، ساكنًا سكون الموتى تحت البطانية وعروق البرد تضرب في... أطفئ خلالها اللمبة لكي تحد من كمية الرطوبة التي تتسرب من الباب المخلع وتضرب في عظامي... أتكور خلالها على ذاتي، أسحب رأسي كسلحفاة، مطلقًا أنفاسي بقوة لكى تدفئ المساحة الخاوية حول جسدي... إلى أن تتآكل العتمة ولم أعد قادرًا على احتمال البرودة المندفعة من الخارج فأصحو تتملكني رجفة الضعيف وأجد أبي يتوضأ من الأبريق...

- رايح فين الوقت... الدنيا ساقعة بره؟

أقول بهدوء حتى لا يزعق لي: أبدًا، أنا بأحب أجري شوي وكمان أحش برسيم للبهائم بدري... وبعدين أروح الشغل.

يسكت... وأنا خارج من البيت واضعًا يدي تحت إبطي... رجفة قوية وعنيفة تهزني أقاوم بها لفحة الصقيع... فأسير ولا أعرف إلى أين ذاهب... وفي يدي كتاب يحيى حقي.

كيف أستمتع بالقراءة وسط كون معاد وفاسد، مناخ لا يتحمله سوى أصحاب الجلد السميك، يمر عليهم كل شيء وهم لا يبالون، وليس لنا سوى الاحتماء بالعزلة فقط التي تحمينا.

زقزقات عصافير تختفي تحت أوراق التوت والباكس وسرب طيور

- أبو قردان - تتدفع في تشكيلات مبهرة لا تنسيني الصقيع بتاتًا!

ندى صغير يلمع على سطح الحشائش النابتة على سطح الطريق العمومي والشبورة الرقيقة تتآكل مع خيوط الشمس الواهنة... أترك الطريق العمومي، وأسير في الممر المؤدى إليه، تحيطني أشجار التين بألواحها العريضة المغبرة وصلاتها المخادعة وقبحها المريب عندما تكون خالية من الثمار... يزيد عليها التاريخ السري حيث تغلغل في خيالي من أفاع جبارة وذئاب وتنانين ومردة تسرح في غمر الليل تبطش في قلب الشجر وتقيم عالمًا صارمًا لا وجود فيه للضعيف... إلى أين أنا ذاهب وإلى أي طريق أسير حيرة قاتلة.

مصائر متعددة

السديري مفكوك على القميص الدبلان وجهة ممتلئ طويل يتباهى بقوته، ضخم فوق السبعين، يحمل المحراث على كتفه ساحبًا البقر في موسم الحصاد يسير وراء المحراث، حصاد البطاطس، يسحب البقر ويظل حتى أذان المغرب ويعود حاملًا المحراث... الأولاد تعبوا في محاولة منعه.

أنا لسه بصحتي يا غجر عايزين تعزلوني، أبقى زي الحريم...!!

حل موسى البقر وانتظر الأب الذي سحب رطل زبده، ورماه بين رغيف عيش بلدي كبير وانتهى منه وشرب الشاي وقام، مال على المحراث ورفعه على كتفة مرة واحدة، تنبه على نار تجتاح ظهره فوضع يده على ظهره، غمره عرق، ناولني الناف، سار في الطريق الذي يطول وقدمه تبطئ، يرفع قدمه وموسى يتألم وهو يرى الألم المرسوم على وجه الأب ماذا يفعل؟ لو لمس المحراث سيسقط من على كتف الأب، بدا عاجزًا حتى عن الكلام، يلهث الأب ويسمع صوت شحيرة، لم يكن يريد أن يسمع، أن يتجاهل كل ذلك يا رب، عنيدًا، جبارًا، عنيفًا، حتى على نفسه والآخرين، صعد

الجسر والسديري قد غمره العرق ولم يعد قادرًا على الحركة... حتى وصل إلى رأس الأرض، فأسقط المحراث من عليه، وجلس على الأرض غير قادر على الكلام، يمسك عصا صغيرة وينكش في الأرض غير قادر على رفع رأسه... لم يكن يرى شيئًا... كل شيء غائم وتحول إلى كيان واحد، الأرض والبقر، العرش، البشر، السماء، الأشجار العالية... انتهى الكومي وعرف أنه كبر في السن... ياللّه حسن الخاتمة...!

العرق جف. فتح عينه على موسى يضرب بالفرقلة في الهواء صوته قويًا، فكر الكومي بشبابه ففرح، وحب البطاطس يقفز من باطنه الأرض، وجد السبت بالأكل جواره، أخذ يسحب في العيش ويأكل وعندما انتهى صعد الجسر عائدًا إلى البيت ولم يعد يذهب إلى الغيط مرة أخرى، مستسلمًا للحكايات القديمة، مع أصدقائه وكلما قال له أحد: لماذا يذهب إلى الغيط يردد في سخرية: خلاص، الواحد يقعد في البيت يسلك النسوان من بعضها... يلعب السيجة مع أصدقاؤه العجائز ولا يمل الضحك بدا متسامحًا ودودًا وتذكر زوجته أم الأولاد، طوال عمرها مسحوقة تمامًا أمام الجد، كأنها غير موجودة حتى دخل عليها البيت في غير وجود الأولاد، وجدها تصفق وتدور حول نفسها... تضرب الأرض بقدميها فيشخلل الخلخال ويرن.. صمت حتى انتهت وعندما رأته خجلت وحزنت حزنًا شديدًا حتى إنها كانت تتمنى أن تموت في تلك اللحظة.

مبسوطة يا سيدة؟

بحسك مالي البيت يا أبو موسى.

طيب سامحيني يا سيدة.

أخذت تسرسع كثيرًا ولم يفهم منها سوى الرضا على وجهها.

دخل غرفته وشد الحزام عليه ولم يخرج من الغرفة إلى المقبرة، الدوام لله، ولم يعرف الجد، سيدة ظلت حياتها سعيدة وكانت تخاف أن تعلن فرحتها، أن تطلق زغرودة كل يوم لفرحتها... تكتم فرحها خوف أن يزول العز التي هي فيه. شقاؤها في الزوال... كنت تريد تثبيت كل شيء حتى عندما مات الزوج، كان وجود موسى يجعلها تحس أنه موجود ولم يتغير شيء.

كان أبي عندما يريد أن يغيظ أمي يقول:

أمك ورثت العبط من ستك سيدة تبقى بتأكل، وهي تبكي وتضحك وسط البكاء وظلت لفوق الستين، بلا شعرة بيضاء ولا كسرت سنة، ولولا موت خالك موسى لكانت أكثر جمالاً وصحة، من أمك اللي تهدمت بدري.

أقولك... إن مت قبل ما أتجوز قول أبويا مات ناقص عمر... ثم يضحك وأمي ترد عليه:

هو كان في أملك... ضحك أبي وخلع الطاقية وأخذ يهرش في رأسه: كنت يتيم وتأخرت في الجواز شوية وكانت عيني على كام حمامة كده طاروا من قلة الفلوس، وأنا اشتغلت مع جدك سنين طويلة وكان بيحبني وكنت أحل محله في أحوال كثيرة كان زي أبويا... المهم تعبت قوي في الشغل بالكوريك من الصبح إلى صفار الشمس... قلت أسوق الهبل على الشيطنة ورميت الكوريك وملت على جدك وقلت له:

- طيب سامحيني يا سيدة.

أخذت تسرسع كثيرًا ولم يفهم منها سوى الرضا على وجهها.

دخل غرفته وشد الحزام عليه ولم يخرج من الغرفة إلى المقبرة، الدوام لله، ولم يعرف الجد أن سيدة ظلت طوال حياتها سعيدة، وكانت تخاف أن تعلن فرحتها أو تطلق زغرودة كل يوم لفرحتها...

تكتم فرحها خوف أن يزول العز التي هي فيه. شقاؤها في الزوال... كانت تريد تثبيت كل شيء حتى عندما مات الزوج، كان وجود موسى يجعلها تحس أنه موجود ولم يتغير شيء.

أدون هـذا المقطـع من الرواية وراء أبـي ليس بغرض الحنين، لا ولكـن بغـرض الرصد المحايد تماما وهذا يطرح سـؤالاً: هل الماضي ليس به شـيء غير النوسـتالوجيا إذن لمـاذا تم التحقيق في القرن العشـرين في طلب المسـيح وتبرئة اليهود... وتمت إدانة الإمبراطورية العثمانية في الكونجرس الأمريكي على الجرائم التي ارتكبتها في حق الدول التي احتلتها والأمثلة كثيرة.

أمك ورثت العبط من سـتك سـيدة تبقى بتـآكل وهي تبكي وتضحك وسـط البكاء وظلت لفوق السـتين بلا شعره بيضاء ولا كسرت سنة ولولا موت خالك موسى لكانت أصبى من أمك اللي اتهدمت بدري... أقولك إن مت قبل ما أتجوز قول أبويا مات ناقص عمر. ثم انطلق في الضحك وأمي ترد عليه:

وهو كان في أملك.

ضحك أبى وخلع الطاقية وأخذ يهرش في رأسه..

كنت يتيمًا وتأخرت في الجواز شوية وكانت عيني على كام يمامة كدة طاروا... من قلة الفلوس، وأنا اشتغلت مع جدك سنين طويلـة وكان بيحبني وكنت أحل محله في أحوال كثيرة كان زي أبويا ... المهم تعبت قوى في الشغل بالكوريك من الصبح إلى صفار الشمس ... قلت أسوق الهبل على الشيطنة ورميت الكوريك وملت على جدك وقلت له:

باقول إيه يا بو موسى... عندك بنت ياريت تكون من نصيبي.

رفـع قامته ونظره ... جـدك كانت عيناه عين صقر... ركبي سـابت وقلت ها يضربني، رجل شـديد... ومالـه... يضرب... أنا

زهقت وعايز أروح.

أبعت لي أم محمد بعد المغرب.

تقول أنا لقيت كنز، تقول أنا في اللحظة دي كنت قادر أهزم الدنيا دي... ماشي مش عارف الدنيا اللي طول عمرها زعلانة مني بتصلحني بجد وإلا أنا اللي حاموت، ولماذا عرف خالك موسى أتجن، وكان عايز يجوزها لواحد صاحبه من أشمون.

أنت كشر لكن طيب وراجل.

كان جدك بيحبني وخالك موسى فيه عرق عبط من ستك سيدة»، وكان فاكر إني أنا ممكن أخاف منه... أنا كنت أحارب الدنيا، أقف قدام الشيطان... أحارب الجن... حتى لو مت... هو بكتر السنين لا، ناس تعيش ألف سنة ولا كأنهم عاشوا وناس تعيش سنين قليلة ولكن تترك أثر.

قام حرق الممكنة اللي دفعت فيها دم قلبي، ماتور صغير يروى القراطين بتوعي، نشف البرسيم، وسم الجاموسة، جدك كان غير موجود كان في موسم حصاد الأرز وواخد خالك سعد معه أول ما نزل وبرك الجمال ذبح جدي وقال: ابعتو يا ولاد لمحمد الفلاح علشان يتعشى معانا... كان لازم يعرف. سحب الجدر الخيرزان وظل يضرب في موسى بالجدر، ولم يقدر أحد أن يدخل على جدك والنسوان تصوت لما الدم شلب من كل جسمه، وخالك موسى واقف لم يتحرك إلى انتهى من الضرب،

قم حمل الجمل دقيق، زبده، سكر، شأى، واسحب جاموسة من الشونة ووديها بيت محمد الفلاح.

اسكت، اسكت، هو عاد فيه رجاله. فضها سيرة

٢

هـل كانت الجـدة مجنونة؟ دخلت الغرفة لكـي أسـرق الزبد وأضعها على رغيف وآكل في حذر أدخل حتى لا تحس بي العجوز التـي أصبحت أخافها في الفترة الأخيـرة، يزيك الباب أراها في ركـن الغرفة تتنفس في بطء... الجـدة التي تجاوزت المائة تمدد يديها الهزيلتين على العصا: مين؟ عينيها مطموسـة بلحم جفونها كلمـا اقتربت منى أشـعر برعب... جفونهـا تآكلت، كانت في ذلك الوقت في التسعين من عمرها المديد، قلت: أنا...

ترد عليّ في مودة: ابن الغالية تعالى...

لا أسـتطيع أن أتحـرك، أو أرد حتى تأتي وتسـحبني من أذني وتقول في صوت غليظ وحاد كأنها يتلبسـها شبح: تعال كل مع خالك موسى قبل ما يخلص الجدي...

خالي مات ... أقولها بحدة.

الجدة شـاربها اسـتطال وجـف عودها - تمامًـا - ولم يبق منها سوى عين تومض بوميض شرس خالاً من الحياة، تنقض عليّ في حركة خاطفة مفاجئة لي غارسـة رأسـي في الأرض حتى تكاد تخلـع أذني وملابسـها الكثيرة تكبس علـى بعطنها الذي يفوح منها: السبع ما يموت يا كلب!!

تشهق، حتى تصورت أنها ستموت فجأة وأنا أراها ذاهلة تتخبط فـي الحوائـط حتى أنني بكيت مـن أجلها، وهـي تفتح الدولاب المغـروس في قلـب الحائط وتخرج حق النشـوق وتضـع الخليط مـا بيـن أصابعها ثم تشـد في قـوة وتعطس ضحكـت ذاهلة عن وجودي - تمامًا - تفتح السـحارة وتخرج منها شـوم مغموسة بالدم

وتدور في الغرفة وقد دبت فيها الحياة، وصلب عودها والعصا في يدها ترقص وتضرب بالعصا في ضربات هو جاء تزعق وكأنها موسى الكومي: الفتوة الجدع سيد الرجال عاد من قبره أنا موسى الكومي يا بلد.

ثم تكومت على الأرض تنشج في قسوة وعنف إلى أن سمعنا صوت امرأة تجرى في الشارع وتطلق الصوات وسط أقدام تدبدت في الأرض.

البلد خربت، موسى الكومي طلع بالشوم، الجدة رفعت الشال القطيفة الذي يغطيها وأنا جريت في الشارع وأرى الرجال يحملون الشوم والبلط والفؤوس ويجرون تجاه السرايا، أجري بعزم ما بي في الشارع تطاردني أصوات النسوة الملتاعة: يالهوي البلد خربت!!!

ذهبت إلى البيت وجدت أبى يجلس في الغرفة الداخلية يشعل سيجارة من أخرى ثم يندفع تجاه الباب الخارجي ثم يعود مرة أخرى ليجلس مكانة. حيرة أبي وقلقة وصمته المتواطئ جعلني أكبت رغبتي في حمل شوم أن الآخر وسأظل طول عمري أكبت رغبتي في أشياء كثيرة بدون مبرر قوى، ماذا جرى؟ أمي تصرخ في الشونة صراخًا مكتومًا وحادًا وتضرب بيدها على وجهها، وسقطت الطرحة وتلوثت الجلابية السوداء بالجلة وهي ترى موسى الكومي يسقط مكونًا بركة ثقيلة من الدم وصوت الأب يتردد في وعيها:

- إن خرجتي تكوني طالق.

كتاب يحيى حقي في يدي وقد تمزقت أوراقه ولم يبق إلا صفحات قليلة، فككت الدبوس الذي يقبض على أوراق الكتاب، وأخذت أطيره صفحة وراء الأخرى، حتى انتهيت من

أوراقـه، ثـم جلسـت على الرمل ناظـرًا إلى قرص الشـمس الذي يدفع الشـبورة... أخرجت المطواة قرن غـزال وأخذت أزيل الندى الرقيـق وصدري يمور بغل وغضب مـن كوني أنا عليه مهمل، لا أسـتطيع أن أزيح ركام الضعف حتـى أنني أكاد أبكي، لأنني لا أسـتطيع أن أؤذى أحـدًا، أكبت غلًا يمـور بداخلي وأعصابي غير قادرة على تحمل نتيجة كشـفي لذاتي الحقيقة في ممارسة العنف قلبي يرتعش وأنا أرى أمي تزوم ويتدفق منها سيل من الدموع. تـرى انهيارات أمك المتتالية وينفـرط عصبك ويتحول عنفك إلى مجرد صوت فقط، وداخلك يخبو وتحس أنك صغير وتافه وتعلم أن هـذه الأشـياء تدمـرك مـن الداخل لا تسـتطيع أن تقسـو على أمـك وأنت شـاهد على عذاباتها وانكسـار قلبهـا المتكرر من المـوت الواقف لها بالمرصاد ولأحبائها، كبرياؤها الشـديد قد دمر وأصبحت عجوزًا مسـالمة تفزع من أي شـيء يمسك أو يمس أخوتك وأنت أخذت على نفسك عهدًا أن لا تخذلها أبدًا وستطوي كل شيء داخلك وأنت تعلم أنك تدمر من الداخل وتقرب المسافة التـي تقطعها نحو الطبيب النفسـي لمـاذا لا تترك هذا المكان؟ ستبكـي قليلاً أمك وبعد ذلك ستتعود على البعاد وستجد حياتك الحقيقية...

ستحرر على الأقل قليلاً وتشم هواء نقيًا، ستغني وترقص وتحلم كما تشاء وتمارس كل الطقوس وحدك كما تشاء ولكن أنت لا تستطيع هذه حقيقة غير قابلة للشك، خائف علمتك أمك الخوف، الخوف من عدم قدرتك على تحمل مسؤولية التحرر، أن لا تحتمل أعصابك عبء السير في الطريق وحيدًا!!

أقف على التبة وبيدي مطواة قرن غزال أشرط بها قحوف التين في شراسة القحوف اللينة تتساقط ورائي حتى غمرني العرق وبدأ سـن المطواة يلمع مسحتها وأغلقتها تاركًا أشجار التين مشوهة

وماء ثقيل يُنز منها... صعدت العلواية وظهر البيت من بعيد. أغلقت المطواة ووضعتها في جيب السيالة ولم أتخل عنها سوى بعد أن رأيت شبل يدخل.

دخل بيت أرملة ولها ولدان كان المطلوب منها أن تخرج الفلوس التي معها... أزاح الباب ودخل رفع شريط اللمبة فخرجت من تحت اللحاف وكأنها خارجة من قبل، وضع يده على فمها وأشار لها بعدم الكلام وأخرج سكينًا طويلة يقطع جمل كي تخاف ورغم ذلك لم تكن خائفة، رأى الخوف في عيون الناس... كان وجهها يزداد صلابة وصفارًا غريبًا زاد الحقد داخله فسألها: الفلوس فين؟ لم ترد أخذ يكر عليها أن تأتى الفلوس... أزاحت الخرق التي تغطي بها نفسها فلم يجد شيئًا... الولدان بكيا... وهي بدت تهاجمه وصوتها يعلو جن مال على رقبتها وشرطها ومزق الأولاد وأشعل النار في البيت وبعد أن خرج في اليوم التالي كان يروي كل شيء بهدوء وهو ينشر الملابس بعد أن انتهى من غسلها وهو يرتدى قميصًا من الدبلان والملابس بدت زاهية ومزهرة على حبل الغسيل، أصبحت بمرارة تاركًا المكان وأنا أعلم يقينًا أن هذا الطريق ليس طريقي، وأنني يجب أن أتجاوز هذه الفترة من حياتي... أن أنساها... عدت إلى البيت وأنا في طريقي أخرجت المطواة من السيالة وعلبة السجائر ورميتها في الترعة كان بداخلي يعي تمامًا أنني يجب أن أعد نفسي ككاتب... لا... ولكن كإنسان يحترم ذاته.

٣

البيت مبني بالطين وحيد ثابت جواره حلفاء منطويًا كأنه قبة. حشائش جوار البيت ومرصوص عليها الجلة الجافة، وكوم السباخ مكوم وراء الجاموسة المربوطة بحبل من أذنها ومقيدة من رجليها شبل يجلس تحت الجاموسة وبين فخذية الدست الفخار أشرت إليه لم يرد جلست على الرمل في انتظار انتهائه من حلب الجاموسة، سيول اللبن تضرب في قاع الدست. الحمارة ظهرها مجروح، والذباب يحوم حول الجرح، والحمارة تضرب بالحافر في الأرض قدمه مغروسة في الطين وعندما انتهى قام من تحت الجاموسة ووضع الدست على رأسه وهو يناديني.

- العواف.

- أهلًا يابا شبل.

قالها بصوت طفولي ووجهه به نقط لبن متناثرة عليه وهو يحلب الجاموسة. سرت واراه، فتح الباب بهدوء ثم وضع الدست على الأرض وأحضر القربة ووضع فيها اللبن ثم ترك جزءًا في الدست. أشعل البابور ثم وضع عليه صحن به اللبن حتى غلي فأنزله وسار داخلًا الغرفة حيث تنام الزوجة. أجلس قبالة الباب، كانت ما تزال نائمة وهو واقف جوار السرير يهمس بصوت واطئ حتى لا يزعجها كانت تطلق شخيرًا عاليًا. لم تصح. خرج مرة أخرى وأنزل البراد من على البابور.

كسر خبزًا جافًا للبط والإوز ووضع له الماء في وعاء فرط كوز ذرة ورماه للكتاكيت أمام الباب ثم دخل مرة أخرى يقدم رجلًا ويؤخر الثانية وكأنه يعتذر عن وجوده، يده ترتعش، اليد

التـي قبضـت علـى البلطة واقتفت أثـر غريمه في لعبـة رصد من كليهما عشر سنوات ظلا خلالها يطاردان بعضهما إلى أن أغفل غريمه وأحسن بالأمان في هذه اللحظة كانت البلطة قد همشت رأسـه تمامًا الذي أخذ ينتفض حتى سـكن جسـده سـحبه على صدره وأحس براحة، كان يريد أن ينام. أن يمدد الجسد ويجلس جـواره ويحكـى لـه حكايتـه، كان يريد أن يـروى تاريخه في تلك اللحظة يريد أن يقوم القتيل من رقدته ويثنى على شـجاعته، لحظة الإعجاب هذه هي التي يريدها البيه كان يعرف أن يتسلل إليه بنعومة ويدفعه في الطريق الذي يريده، لم يفعل شـيئًا سـوى أن أغمض عينه قليلًا لكي يسكت الضجيج الذي في رأسه. ثم حمله وسار به وسط حقول الذرة، الهواء تقيل وأوراق الذرة الجافة تصدر وشيشًا مزعجًا. صعد الجسر ثم نزل في البحر حتى وصل إلى عنقه تم تركه يعوم. عاد إلى البيت في غاية السعادة، استحم وذبحت عائشة وزة يحب الأكل ويتلذذ بالطعام وهو لم يهنأ بالطعام منذ فترة طويلة، أكل حتى انتهى، وكأنه لم يأكل من سنة.

- بالهناء والشفاء.

- ارتحت.

- آه ارتحت.

خلع الطاقية ورماها على الأرض وصعد السرير وشعر أن هذه الليلة مباركة وأنه سيرزق بطفل، كان يراه أمامه لو أنجبت طفلًا سيحمل الفأس ويعمل عند الناس أجيرًا. خلعت التربيعة واندست جـواره وضاجعها وكأنه يضاجعها أول مرة، كان خفيفًا كأنه ملاك وهي مازالت عذراء وظل طوال الليل معها في حضنها.

نادانـي، ودخلت الغرفـة كان واقفًا يده ترتعـش وهو يناديها وكأنني أرى دموعه تترقرق بدون سـبب ظاهر، وقفت لم أعرف

خلالها أعود أم أظل واقفًا هكذا.

قال لي شبل وهو يناولني كوب شاي، قبل أن أتزوج كنت خلالها لا أستطيع أن أنام أكره السكون، أحرق البيوت القمح، سم البهائم، ذاعت شهرتي في البلاد المجاورة وكلما حدث شيء قالوا في همس. شبل هو الفاعل، وعندما جاء ضابط جديد في النقطة وكان شابًا متهورًا وعنيفًا كان كل من يدخل النقطة راكب يخرج منها بعجز، الضابط يركب الفرس ويسير في البلد مزهوًا لا يجعل الغفر ينامون حتى أنهم كانوا آخر حتى جمعهم وأخذ يضرب فيهم ويحقق معهم حتى الصباح، فاعترفوا بأن الذي يفعل كل شيء هو شبل فقط، ولا أحد غيره ولو انتهينا منه سيعم الهدوء البلاد.

- دا من عليه كبيرة في البلد.
- أبدًا دا حتى مقطوع.
- ورآه عصابة كبيرة.
- أبدًا هو لوحده.
- جن يعنى؟
- جن يا سعادة الباشا.

ركب الحصان وأمام دليل حتى اقترب من الدار أخرج البندقية وأطلق عدة أعيرة مسحت النار والشاي، اقترب وبطارية تطلق سهمًا من نور ويده على الزناد وكان به تصميمًا مجنونًا. لو تحرك سيموت فورًا، سأجعل جسده غربال حتى ولو تحولت للتحقيق سهم ضوء على وجه شبل المغبر وكأنه تمثال قديم لم يتحرك، مما أدهش الضابط أن شبل يشعل نارًا تظهره تجعله هدفًا سهلًا لألا طلق ناري، الضابط استرخى أغمض شبل عينه من شدة ضوء البطارية وبأن وجهه الطيب الدافئ، سكن داخل الضابط وأحس

أنه أخطئ وأن هذا الرجل ليس هو المقصود. وعرف أن الغفر قد سخروا منه، وأنهم يضحكون الآن عليه. فكر أن يتراجع أن يعود، ورغم ذلك يسير إلى أن وقف الحصان أمام الرجل.

أنت شبل؟ خدامك شبل، هكذا رد ثم وقف على ركبته وفتح عينيه في مواجهة الضابط تمدد كعملاق. هل خاف الضابط؟ الشيء الذي عرفه شبل أنه لم ينطق، أغلق نور البطارية وعاد بالحصان إلى بيته محاولًا نسيان تلك الليلة.

شهرًا لم ينم الضابط يختار شبل المواقع المجاورة له في زيارة الأعيان ويحرق بيوت والأعيان نظار المدارس، خطباء المساجد، المواشي، فك مكن وإلقائه في البحر لا يغيظني سوى الغطرسة وادّعاء القوة الغطرسة في استخدام القوة. أجمل أيام حياتي كان مكشوف عنى الحجاب كنت فرحان عايز أعمل حاجة أعملها عايز أعملها وكانت تنجح، كنت قادرًا على إحراق العالم كله ساعتها، أنت عارف علشان تشوف الطريق كويس لازم أقولك تكون بتاع ربنا. أنا عمري ما أديت محتاج أو ضعيف أبدًا الأمان أوعى تيجي على الضعيف الشيء اللي مخلين متقبل عدم وجود أولاد، الأولاد اللي قتلتهم ظلمًا، كل ما افتكر الحكاية دي يتغلغل جوايا حزن رهيب وأفضل ماشي تايه. أقولك أنا كنت باضغط على أسناني كنت عايزه يقرب علشان يبعد عن جسمي.

- أنت عايز تفهمني أنك زاهد؟

- دا من ربنا؟

- مش عارف؟ يمكن من عند الشيطان!

- قول قول يا مولانا. قلتها بسخرية.

- يا ابني اسكت أنت ما تعرفش حاجة.

بعد شهر توقفت عن فعل أي شيء استرحت في انتظار أن يأتي،

وأتى كما جاء أول مرة، نزل من على الحصان، قمت سحبت الفرسة وربطتها في المدور وخلعت السرج من عليها وأحضرت لها مقطف مليء بالفول ثم أحضرت سجادة وأجلسته عليها.

- تشرب شاري.

- يا ريت.

- باين عليك التعب، أنت كنت في سفر؟

- آه سفر طويل.

لم يكن يريد أن يشرب شاي، كان يريد فقط أن ينام، غرس كوعه في الأرض، وأنا أشعلت النار ووضعت البراد على النار وتركتها حتى جفت المياه في البراد وطقطق الصفيح، وهو غارق في نوم عميق على حجري وأنا أهرش في رأسه وأملس على صدره وأحس خلالها أنه ابني كان ابني فعلًا، ظللت هكذا حتى أشرقت الشمس وبدأ الصباح بهيًا وجميلًا على غير العادة وروحي عالية ترفرف بلا سبب، آه لو تعرف الناس قيمة الأمان!

- ارتحت؟

- آه.

غسل وجهه تحت الطلمبة وشرب اللبن وسار، أقولك أنت لسه صغير ماتعرفش أبوك وموسى وستك الطاهرة وجدك في دار الحق، هو غلبان ودا صحيح برضه، كان عايز يتجوز أمك، وكان يعادى موسى الكومي وصلوا مع بعض لطريق مسدود وأبوك عارف إن موسى طيب. عامل زي العيل الصغير، أي كلمة ترضيه قلبه زي اللبن الحليب يفور وينزل على ما فيش، وأبوك مش راضي يريح موسى وواقف ضد البيه اللي خايف من الطاهرة أم محمد ودعواتها المستجابة، لأن عمه كمان ظلمها في الأرض إلا تحت الجسر وخد منها ثلاثة قراريط، أخذ يهز في حتى صوابع

علمت في كتفي، أرملة وضعيفة والبلد دي مبنية على ظلم ولا أحد بيقول فيها الحق ثم علا صوته، اسمع كلامي سكتت رفعت التربيعة من على رأسها وأخذت تدعي عليه، الراجل وصل البيت جاءت له فورة دم مات، أقولك بقى بين نارين وهو يجاكر، أنا مليش كلام معه من بعيد لبعيد كده، ولما كان ينام في العمرى في مكان مقطوع زي ده، أقول له روح نام في البيت يا محمد، الدار أمان، يقوم يرد في حدة.

- وأنت مالك، أمان وإلا زفت، ابعد أنت يا نعوم يا نعوم، ويضرب كف على كف.

وفى نص الليل قمت مفزوعًا يا ساتر يا رب الست عائشة قامت، مالك قلت وكأن ألف راكسين على قلبي، محمد الفلاح حايموت رددت في ملل، يغور في داهية دا راجل كشر!

رميت الحزام وبقيت أجرى بنومى أنا بجري مش عارف رايح فين، أنا بخوض في البرسيم والدنيا عتمه اتخبط وأنا حاسس أن حد بيجري معايا، ورأيا أجرى بعزم ما بي أسقط في الوحل، حتى وصلت إلى الكوبري، ورأيت الماء يجرى تحت بطن الجسر، سرت وراء المية إلى أن أوصلني إلى أرض محمد الفلاح، الذي يقف على رأس الأرض وفى حجرة البرسيم وكلما امتلأت فردة بالمياه، ينزل ويبدر البرسيم وأنا أسحب البندقية الموجهة إليه، مين؟ عمى شبل!

أبوك غلبان وعامل سبع فيها، حد يروى البرسيم في نص الليل تحت بطن الجسر وبجوار البحر دا فخ وكله علشان الست الطاهرة أم محمد يا سلام على الست دي، ثم سكت.

- قلت: مالها.

أشار لي. ربت يتامى لحد ما بقوا رجالة، هي دي شوية.

- غير السيرة.

- وعندما سألته عن البيه مال عليّ.

- يا ابني اللي ما يخاف من ربنا خاف منه.

كان صوته قاطعًا وحادًا ووقع في نفسي أنه قواد. فله خشية وصلابة، قاتل ونعومة قواد. كانت الست عائشة غافية على السير، شعرها أبيض والتربيعة ساقطة من عليها شعرها متضفر في إحكام، جلست على السجادة وهو واقف في يده الحليب يهمس، الغرفة تغرى بالنعاس وهو ومنحنى أزاحت بيدها الهواء يوه فتحت عينيها رافعة جزءًا من اللحاف من على صدرها ورفعت جزعها الأعلى قليلًا وهو يردد في مودة.

- والنبي ما تتعكري يا ست.

الشمس فرشت الكون، ووضعت الصحن على فمها وأخذت تشرب حتى منه وناولته إياه فارغًا ثم نظرت إلى.

أنت ابن مين؟

- قلت: محمد فاروق الفلاح.

- آه.

- أمك صفية صحتها كويسة؟

- كويسة بتسلم عليكي.

بنت أصول، الله يرحمه جدك، خالك موسى كان بيقعد مكانك يا لله، التراب بيلم. ما يعقد على المداود غير.

- وجده كان طيب، الفلاح يا ست.

- يا بن كان عارف أنه حا يموت بدري. لا كره حد ولاحد كرهه، طول عمره السيجارة في أيد والجوزة في أيد ويلعب كوتشينة طول الليل، كان خواف.

يا لله أهو مات وترك الهم لأصحابه.

تركنا شبل ليغسل الصحون والعدة والحلل والكوبايات وهي تنظر إليّ حتى أنني توقفت عن الأكل وأزحت طبق اللبن وأنا أنظر إليها وأحسست أنه يخرج منها شيئًا يشبه الموت رائحة الموت حاصرتني حتى إنني اختنقت ولم أعد قادرًا على التنفس، كانت تتخلع عن ذاتها وتتمدد وتتمدد وتقترب منى وبان وجهها الغير آدمي يتحول في هدوء وعلمت أنني وقعت في فخ وأن هذا الهدوء الذي يحيط بالمكان مجرد وهم وأن نهايتي قد حانت، تلفت لم أجد أحدًا، كل قبل اللبن ما يبرد، لم أستطع أن أرد، أو أزيح عيني عنها كأنها سلبتني الإدراك، أزاحت اللحاف من عليها فتزحزحت إلى الوراء ملتصقًا بالحائط وعرت الجلبات إلى ما فوق ركبتها ونادتني بصوتها الأجش، تلفت حولي في فزع لعلني أرى أحدًا قمت ووقفت قبالتها وكلما اقتربت انحسرت عني وعادت مرة أخرى.

- اقعد جنبي على السرير.

جلست على طرف السرير ساهمًا ناظرًا إلى ملاءة السرير وأخذت أعد المربعات في استغراق محاولًا أن أخمن ماذا تريد مني! ارتبكت وخفت من شبل في الخارج ومنها في الداخل، وعلمت أن الست التي يسكنها الموت تلعب بي، وشبل القاتل يحدد بالخارج كيف يقبض فيها روحي، داخلي ممزق وحائر، ماذا أفعل!؟ حتى نادتني.

- دلك رجلي يا ولد.

- بس.

- تعالى هنا.

قالتها بنفاد صبر لم أستطع خلالها أن أتردد، مسكت رجلها كانت دافئة.

سـحبتها فرفعت الجلابية من علـى رجلها فبدت رجلها بيضاء وعـروق رجليهـا واضحـة، أخـذت أدلك فـي كعـب رجلها وفى مفاصلها وعظام الساق. حتى زعقت بأعلى صوتها.

- إنت يا له أجمد.

أية محاولة لتهشيم السرد هو نوع من الهجص، ولكن أنا أحاول ألا أستسـلم لسـلطة السـرد وهذا الهروب ليس لضرورة نقدية أو استجابة لمقولات نظرية تأتى إلينا من الغرب، أبدًا أحاول الهروب من السرد لسبب نفسي فقط.

أخذت أدلك بقوة في كعب رجلها وفي مفاصل الركبة وعظام الساق حتى تنهدت في راحة وراحت في ثبات عميق وصوت شخيرها يعلو تركتها وخرجت، شـبل يمسك قطعة من الحجر ويحك في كعب رجله حتى احمرت والحلل تضوى في وهج الشمس، وعندما رآنـي أخرج مـن البيت، واضعًا يـدي لتخفف الشـمس عن عيني ناداني. نامت؟ قلت: أنا غلبانة صحتها تعبانة شوية، انتهت وكأنه يعلم ما جرى وكأنه طقس يومي وليس عفو الخاطر وأنني كنت أداة، وأننـي متروك أسـير فـي دائرة وضعوها وأن حياتهم تسـير بانتظام ودقة عجيبة.

- هات القياس اللي عندك.

ثم حمل قفة بها ذرة ووضعها أمامنا وجلس يفرط فيها ثم شخط فيّ بقوة أربكتني.

- اسمع ما تتلفتش زي الحرامي!

قلت:

- أخجلت إزاي.

- لما حد يمر ماتتلفتش خليه يعدي إن رمى السلام.

- ترد ، إن مارماش أهلين.

- بس!

اسـكت أنـت متعلم خلى الحاجات دي للجهلـة اللي زينا البيه كان يقول، العلم نور البيت اللي ما فيهوش علم ما فيهوش نور، ثم استدرك البيه كان يعطي لابنه جنية لكل ساعة يذاكرها ، دلوقتي ابنه بقى دكتور كبير في أمريكا ومعاه فلوس ما لهاش آخر.

٤

وسط حقول الموز وعلى ضوء شمعة خسر سعد الكومي ستة آلاف وسبعمائة جنية في القمار وضاع حلمه في الثراء وأن يكون من الأعيان، ويرمي العباءة على كتفه ويحضر مجالس العرف ويتصدر مجالس الرجال في الفروشات، ضاع حلمه في أين يكون كبيرًا مثل موسى، الشيء الذي لم يستطع أن يبيعه هو طبنجة الوالد، كلما فكر أن يدخل ويسحبها من السحارة تطل صورة أمه فيتراجع، لم يكن يريد أن يصطدم بها، وعندما واجه الأختان سعد بأنه سرق الفلوس وقت وفاة الأب، ثار وضرب على صدره، أسرق مالي، وبكى الأخت الصغرى بكت هي الأخرى والكبيرة كتمت غلها في صدرها، هو خدهم مفيش غيره، ثم فتح حسابًا عند عبد العاطي البقال ولم يسدد الدين وذهب عبد العاطي لكبير آل الكومي الذي أرسل لسعد الذي قال: إحنا كبيرنا الشيطان، واضطر كبير العائلة أن يدفع من ماله الخاص، والبقال كاد يغمى عليه من فرط فرحه ولما سحب من الجزار بمبلغ خمسمائة وسبعون وماطل دخل البيت وسحب بقرة ودفع باقي الفلوس وخربت الدار وباع عبد الفتاح الجمل، والجاموسة والذرة اللي فوق السطح والقمح والناف والمحراث والدراسة وعندما سحب سعد الماعز يريد بيعها، خرجت الجدة وفهموا من سرسعتها أنها لا تريد أن يبيع الماعز، اندهش سعد وضرب كفًا على كف واتهمت زوجة سعد بأنه ضعيف وجبان، زوجة سعد امرأة قوية ومتسلطة، انتفض سعد ورمى التلفيحة على كتفه وترك البيت، والتاجر غمز بعينه إلى زوجة سعد إشارة إلى

ثديها الظاهر، لمت ثديها ومصت شفتيها، إيه الكهن ده؟

وأغلقت الباب بالضبة، يا قاعدين يكفيكم شر الجايين. الجدة انزوت في غرفة الخزين، تلبس كومة ملابس على جسمها وتدور في البيت في شبه ذهول لا تخرج من البيت ولا تسأل عن طعام أبدًا، تستحم ولا ينقطع من جيبها حق النشوق حتى أصبحت رائحتها كريهة وانتشر القمل في رأسها والبراغيث في جسمها، لم تكن تأبه، حتى أتت ابنتها الكبرى وحمتها بالقوة وهي تبكي كالأطفال!

- اتحكمي في أمك.

- والابنة بالليفة تدعك في قوة وتغرف بالكوز وتصب الماء على جسمها وهي تشهق.

- صلى علشان الصلاة تنفعك يوم الموقف العظيم.

- ما أعرفش (تقولها بصوت عال) أنا عمري ما صليت.

لم تعد تفكر في شيء سوى خيالات موسى التي تطاردها، كانت تحبه وتفخر بأن هذا الرجل من صلبها (ابنها) ولذلك لم تكن تعتقد أبدًا أنه مات. وعندما كنت أجاريها في الكلام وأن خالي موسى في غيظ الشريعة أو الأربعين تفرح بي وتخرج الفلوس المكرمشة وتعطيني وأنا أشترى بها سجائر من عند البقال وعندما تسمع صوت تنفسي عال وخرخشات تزيق في صدري كانت تقول: شرب على قد ما شرب عمري ما سمعت صوت صدره بيخروش.

البنت الكبرى صارمة تدخل، تجد الأم عاجزة عن الحركة من عدم الأكل، تخرج وتزعق مع النسوان، سلف ودين أعيش وأشوف، ثم تدخل على أمها بعد أن تشترى الأكل وتضع في فمها وتبكي على الأم والخراب الذي حل بالبيت حتى إنها لم تعد قادرة

علـى دخول البيت وكلما تذكرت حال أمهـا تبكي وأبي الذي كان يعنفها بدأ في الأيام الأخيرة طيب ويظل وراءها لكي تأكل هي الأخرى وهو يردد دائمًا.

- الرجل ده كان طيب، عمره ما دخل بيته حرام.

- معقولة؟ الشياطين دي كانت مستخبية فيه.

الجدة أنصتت لصوت زوجة سعد الذي كان واطيًا ثم ارتفع.

يا ريتها كانت انبطت عليه.

كانت قد انتهت من الخبيز والنسـوة تقمر العيش بعد أن برد الفرن وهي ترص في العيش، جنت الجدة وانتفضت من مكانها متعثرة في ملابسها وفتحت الباب متجهة ناحية غرفة الخبيز حيث تجلـس زوجـة الابن قرب الفرن. لـم تدر ويد تقبـض عليها فبالت علـى نفسـها عندما رأت الجدة منكوشـة الشـعر، عيناها تنفذ بنـار، حاولت خلالها الهرب فضربتها في الحائط فسـقطت على الأرض فجرتها من شـعرها وأخذت تسـحب فيها بعنف وشراسـة لم يرَها فيها من قبل ذلك، حتى شـاط شعرها وتمزقت ملابسها وهـي تريد أن تدخلها في عين الفـرن وزوجة الابن تطلق الصوات والنسـوة ينزعونها من بيـن يديها وفيها كومة شـعر مجزورة من فروة رأسـها وعندما عاد سـعد مـن الغيـط ورأى زوجته في حالة سيئة والجيران رووا له ما جرى ثار وأخذ يزعق ويهدد بأعلى صوته والجيران يهدؤون فيه.

علـيّ الطلاق لازم أقتلها، لازم تمـوت. دي لازم تموت النهاردة وخلـع الجلابية وجرى ناحية الشـونة وأخذ الفـأس وأخذ يضرب علـى الباب ويجعر، عايزة تموتيلي أم عيالي، يللي مش لاقية حد يربيكي والجيران يشـدوا فيه وهو يزداد هياجًا، المشـكلة إن مراتي بقت قرعة، قرعة يا ناس، خرجت الجدة فاردة طولها ناظرة

إلى بركة دم في السماء وهو جالس صامت تسير في تيه ودلال وكأنها ليست هي، تسير وسط الدار، ثم دخلت الشونة وسحبت جدي وسارت، وسعد صفق الباب وراءها صارخًا، أنت فاكرة حاتعدي عليكي الحكاية دي بالساهل، لا.

الزوجة دخلت غرفتها وأغلقت الباب عليها وسعد يدور في البيت يضرب كفًا بكف، أنا عارف ها تعمل في نفسها حاجة الولية دمرتها خالص، ثم ترك البيت ذاهبًا لأخته الكبرى لكي ترى حلًا لأمها قبل أن تدمر البيت، والعجوز استقبلت الهواء بصدرها ناظرة إلى البعيد تسير في الحقول حتى وصلت إلى الغيط، دخلت الخص بعد أن تركت الجدى في الحقل يرعى وسحبت الجوزة من بين الحطب وأشعلت القوالح وأدخلت يدها بين حزم الحطب فأخرجت ورقة معسل رصت الحجر وأخذت تشرب، لم تعد تفكر في شيء سوى في اللحظة التي هي فيها، الجوزة تكركر وتكح وتواصل الشرب، تحاول كبت الكحة لكي تواصل الشرب حتى فرغ المعسل، عادت إلى البيت مع الغروب وجدت الغرفة مرتبة ومكنوسة ومرشوشة بالماء المعطر، سعد جن كيف تعمل امرأته ذلك؟ تغيرت وبدت الأيام التالية هادئة ترسل لها الأكل المخصوص وتنظف المكان وتحميها وتنصت إلى هذيانها المستمر حتى سعد صرخ في نص الليل، بتحبها أكثر مني، أنا لي حقوق عليكي، حتى أرسلت في طلبها، دخلت وجدت العجوز بهية ويخرج منها ما يشبه الضوء. شيء غير ملموس كأنها عروس متهتكة، وقفت على الباب وهي تدور ثم ضحكت وبانت أسنانها متآكلة سقطت على الأرض وهي تضحك.

- نعم يا أم موسى.

- موسى البركة يا بت.

- موسى البركة!!

- أنا عايزة أستحم.

- حاضر.

أحضرت طشت والمياه الدافئة وصابونة وليفة وخلعت ملابسها حتى أصبحت عارية وبدت في الطشت كفأر ميت وفكت ضفائرها.

- الميه سخنه.

- زي دمعة العين.

أخذت تحمي فيها إلى أن انتهت ثم ارتدت ملابسها وسرحت شعرها، وكانت مجهزة الحنة التي وضعتها على شعرها وتركتها تجف، ثم نامت وصحوة في نص الليل على صوت موسى يناديها، انتبهت لم تجد أحدًا، تركت غرفتها وسارت في وسط البيت، البيت ساكن سكون الموت كأنها تراه لأول مرة، فتحت الشونة لم تجد سوى الجدي كان هزيلًا يقف في سكون بليد في ركن الشونة تهدمت وأخذت تبكي، ثم سحبت الجدي وأدخلته غرفتها ثم فتحت السحارة وأخرجت الساطور وظلت حتى قرب الفجر تسلخ وتقطع وترمي في الحلة ثم وضعتها على البابور، خلعت ملابسها وارتدت ملابس موسى وجلست على الطبلية تأكل في الجدي بنهم شاب وفي آخر النهار دق قلب زوجة سعد دقات متتالية وتذكرت العجوز وحزنت على أنها نستها طول اليوم، دخلت عشه الفراخ وسحبت البيض ووضعته في البراد وأخرجت قطعة زبد وهرست البيض فيها ثم أحضرت العيش وفتحت الغرفة وجدت عينيها مفتوحتين على آخرهما والعجوز راقدة والأكل في فمها وهى منفوخة!

الخـوف

(١)

غفـوت ورأيتني في حجرة مظلمـة ثم فتح على الباب ودخل لي جراد وفئران، حشرات بلا رؤوس وعقارب متوحشة، مخالب فقط تهجـم لي في عنف، سـاعتها أحببت الحياة بشـكل جنوني وأنا واقف على جسر العدم في انتظار ابتلاعي ودائمًا وحيد، سقطت ويدي تبحث عن شـيء تمسك به لا شـيء، ويبرق داخلي ساعتها أحلام جميلة، لو عشت سأحققها، أحلام ستموت بموتي، أصرخ طلبًا للنجاة، وأقوم مغمورًا بالخوف والليل والعرق. افتح النور وأظل ساكنًا، أحاول خلال ذلك السيطرة على الخوف الذي يتدفق في خوفًا بلا آخر، لا أستطيع أن أكبته، رغبتي في الخوف لا تنتهي، هلاوس تكاد تدمرني، ورغم ذلك أحس داخلي أنني أسعى إليها، إن هـذه الهلاوس والكوابيس أطلبهـا، هل أنا منتظم في حياتي اليومية؟ هل أنا سـاكن سكون الموتى؟ وداخلي يحتاج إلى ملء هذه الفوضى، كل هذه الشـرور رغـم أنني أحاول دائمًا الهروب من البيت، السهر مع أصدقائي حتى ساعات متأخرة. السير على الجسور وحدي وسط الحقول، أنا أدخن في شراسة، هذه قصتي الوحيدة المحققة الآن، الاستغراق في التدخين، رغم أنني أحس أن صدري يكاد يتخرب.

ذهبـت إلـى شـبل، كانت زوجتـه مريضة حاولـت خلالها أن أسـحبه من ذهوله ولكـن دون جدوى، ناظرًا إلـى الصحراء في شبه غيبوبة، صمت احترامًا لحزنه وكل آن أقطع هذا الصمت،

تركني ودخل البيت كانت النسوة حول البيت كغربان! سلط عيني على امرأة جميلة تلبس جلبابًا أسود ووجهها أبيض رائق، حتى خرج مسرعًا يرتدي جلبابًا من الكشمير واضعًا الخف الذي يرتديه تحت باطه، قام وتركني وسار على المسقة لحقت به وسرت جواره، غيمه غطت علينا وأنا أتكلم معه وهو لا يأبه بحديثي ناظرًا في اتجاه واحد، وحقول البرسيم اكتست بالمطر الذي يلمع وشجر الموز القائم يهتز ويطقطق ويتساقط المطر بقوة على أوراقه، ريح قوية جعلت الكون شبه مخيف، الصمت جعلني ألوذ بالتفكير في حالة شبل، لماذا هو فقير؟ رغم أن زوجته من عائلة كبيرة، وأين الذي نهبه طوال عمره؟ لماذا يعمل رغم أن له قطعة أرض تكفيه لو أنه أجرها، حتى تغلبت على خجلي وسألته فثار وزعق فيّ!

عايزني أعيش قرمة. عايزني أتركن في ركن لحد ما أموت. خلاص يا سيد شكرًا!

أحسست أنني غبي وأننى جرحته وذكرته بأنه شجرة عقيم، أخذت أعتذر له، صامتًا أسير جواره ووجهه أكتسى بنقاط مطر كثيرة. داخلي خبا وأحسست أنه نفاني تحول إلى شخص آخر غير ودود كريه كلما تقدم في السير زاد تنفسه ضيقًا وبدأ صدره يضيق وقد بدأ عليه التعب فتوقف وأشعل سيجارة ولم يعزم عليّ. قرفت والدخان بتطاير حولي وفتحة أنفي تتسع وعيني تكاد تغلق لم أعد أدرى، ورأسي يدور، متى تتوافر في يدي السجائر وكرهت أبي وأمي، أخوتى محيطي الاجتماعي، قريتي، العالم كله الذي لا يوفر لي متعتى الوحيدة أنا لا أطلب حشيشًا أو بيرة، أنا أطلب فقط سيجارة أعزم على أصدقائي أرمي العلبة بينهم وليست عيني عليها وقلبي يدق لو امتدت يد أحد وسحب العلبة، وش يا بطل.

بـدأت حواسـي تنتبـه وعيني تزداد جمـودًا كلمـا اقتربنا من أشـجار المانجـو الكثيفة الأوراق التي كنـت دائم الخوف منها وأنـا صغير وكبرت ومازلت أخاف منها ومـن الجنيات والتنانين التي تسكن تحتها حتى إن ثمارها تنضج وتسقط ولا أحد يستطيع الاقتراب منها إلا الست التي تظل في كل أشجار المانجو وظلوا جثثًـا لا أحد يريـد الاقتراب لكـي يواريها حتـى هبط ملائكة أبـرار نزلوا بأجنحتهم الخضراء القوية الجبارة وعيونهم الصافية الرقراقة وغسـلوا الأخوة وصعدوا بهم إلى السـماء نجومًا تتلألأ. وأنا بعد عشرين عامًا سأحاول أن أكتب سيرتهم العطرة في رواية ولكن دون جدوى.

ذهبت إلى عبده النجار لكي يقول لي ما جرى فأخذ يضحك وكرشه يهتز. فيه ميت فرع في الجمهورية يحملون اسم النجار، سـألت آخـر قال يمكـن بتقول علـى الشـيخ أحمد النجـار بتاع سـنتريس، وعندما سـألت شـبل عن الست وهل هي قريبة أولاد النجـار، قال: لا لا لا يا أخي الست دي أصلًا أمها كانت بتعمل وهي صغيرة في بيت من بيوت الأسـرة المالكة وكانت شـديدة الـذكاء، اتجـوزت سـايس الأميـر وكافـئ الأميـر مخدوميـه وأعطاهم الجزيرة دي كلها وعندما عرفت أنه مالوش في الخلف تخلصـت منه واتجوزت من واحد من أهل البلد وكان رجلًا طيبًا وخلفت منه الست ومات وهي كرهت الجواز ولما البنت كبرت وأصبحت جميلة الصورة رآها أبو البيه وقال الأرض على الأرض، وتمت الجوازة. البيه فيه عرق تركي علشان كده أم الست كانت عايزه تأصلها رغم الفارق الكبير في السن.

كيـف؟ هـل هـو خيالـي الذي صنـع تلـك الحكايـة أم أنني رومانسي وأريد أن أصنع هالة جميلة حول الست، ذهبت إلى آخر البلد وكان لدى إصرار على مواصلة البحث حيث يسكن شيخ

طاعن في السن لحيته تصل إلى نهاية بطنه، أعمى، دفعت الباب وبعد أن زهقت من الدق عليه وجدته جالسًا وأمامه مصحفًا وكأنه يقرأ من المصحف، ورغم ذلك لا يقلب الصفحة، وعندما قلت له ما جئت من أجله وألححت بالسؤال توقف عن القراءة وسحب يدي ثم تركها وأشار لي بالانصراف، لم أستطع أن أكمل الرواية رغم يقيني أنني لو صبرت سأكتب رواية عبقرية. ولكن كان عليّ أن أتوقف عن كل شيء وأبحث عن شيء أتعيش منه بعد تخرجي.

وصلنا إلى البحر لم يكن المراكبي موجودًا. ورد النيل يعوم مع التيار والصيادون بجوار الشاطئ يلتفون حول النار. السماء تزداد عتامة والبحر يزداد قوة وعنفًا يسير قطعة واحدة متموجة. تركني وأخذ ينادي على المراكبي. صوته مضحك حتى إنني لم أتمالك نفسي فأخذت أضحك، صوته رفيع طفولي. تجاهل ضحكاتي وأنا أبتعد عنه ناظرًا إلى الامتداد الهائل للمياه التي تهدر بموج ممتد وقاس، والجزيرة التي عليها قصر الهانم مضنية. قطعة صغيرة من اليابس يضرب فيها الموج وأعلم أن البحر سينال منها ذات يوم ويغوص القصر مرة واحدة إلى هاوية. هل ستموت الهانم قبل أن أكتب حياتها. لماذا أنا مدفوع إليها؟ هل أنا مرصود أن أقف على رأسها بينما تنسحب منها الحياة أم لأنها نموذج غائب على طوال الوقت أم لأنني مغرم بالأسرار، مغرم بالقصور المغلقة. التي تحوي الأساطير، وكأنني عندما أفتح الباب سيتسلل من ورائه عالم ألف ليلة وليلة. عالم غريب في تلك القصور! العفاريت، الجنيات، المردة، التنانين، السحر والساحر الذي يجعل من قمر الزمان هذه الأنثى البريئة الآية في الجمال، أبحث عنها وسط القصور لعلها مسجونة في سجن من القصدير يحرسها مارد جبار أشكيف لعين لن يفك بكارتها إلا بالرضا الذي لن يحصل عليه أبدًا!

٢

هل أنا في طريقي إلى الهلاك؟ صورتها تتراءى أمامي والمركب الصغير يندفع في الموج، المطر يزيد وسحب سوداء تخفى القمر وشبل جالس يلف في السيجارة وقد انطوى على ذاته في ضجر حتى خيل إلى أنه تقزم. رأسه بين رجليه والمراكبي رجله في قاع المركب ويقف على حيلة مع التجديف. زراعة قوية وجسده ضعيف يضع السيجارة في فمه ويخرج الدخان من أنفه فقط. هل سيتذكر البيه أن أمي اندفعت بعد الثورة وضربت الست ومرغتها في الأرض وأخذت تشد في شعرها حتى مرغتها في التراب!

وقالت لي زهيرة هانم بعد ذلك بأعوام كثيرة وكنا في الخريف وأشجار الباكس قد تساقطت أوراقها وبدت عارية وأشجار البرتقال جفت أوراقها وهواء رقيق يندفع تحت تكعيبة العنب الجرداء وهي تلبس جيب أسود وبلوزة بيضاء يظهر تحتها قميص نوم أصفر. والتجاعيد قد زحفت إلى وجهها ورغم ذلك كانت جميلة ووجهها رائق وفمها قطعة صغيرة ممتلئة وحمراء وكل آن تمشط شعرها المصبوغ بالحناء بأظافرها الطويلة فيظهر باطها منتوفًا وجانب من ثديها. ثم أخذت تشرب القهوة وهي ناظرة إلى الخلاء الشفايف عندما لاحظت أنني أنظر إلى منبت ثديها ضمت البلوزة، أشحت بنظري عنها حتى تطمئن وتترك ثديها ظاهرًا أخذت أنظر إلى البحر وتكعيبة العنب التي تهدم ظاهرًا أخذت أنظر إلى البحر وتكعيبة العنب التي تهدم جزء منها بقاء الحال من المحال.

أنت عندك مبتتجوزش ليه؟

أيه عندك عروسة؟

البنات كثيرة أنت عايز واحدة معينة؟

مفيش واحدة معينة.

صفات إيه؟

أنا عايزها تكون زيك كده؟

(ضحكت وأحمر وجهها) دا أنت متواضع قوى.

لا أنت عارفة قد إيه أنا مفتون بيكي، أنت حاجة كده بتاعة ربنا.

أنت نموذج الجمال اللي بعشقه!

أخذت تنصت لي وأنا مندفع في الكلام أغازل كل جزء من جسمها. بدوت مهووسًا بجسمها والكلام يخرج منى لا أعرف كيف! حتى أنني لا أستطيع تكراره مرة أخرى وكلما ذكرت جزءًا حساسًا من جسمها يبان عليها غضب لذيذ غضب يدفعني لكي أزيد في وصفها وعرفت ما تملكه الكلمات من قوة وجبروت! بداخلها سحر ما! شيء يجعلها تقاوم الزمن كانت مثيرة فعلًا وكان أكثر المناطق إثارة ثديها. حساس صغيرًا وأنا مستثار بشكل جنوني وهي تعلم ذلك وتعلم أنني أتعذب ورغم ذلك كانت تفلت مني كلما أحسست أنها في متناول يدي. خلاص تنكمش كقطة وتزوم في عصبية تجعلني أخافها. أقمع رغباتي بلا آخر. أتركها لأعود إلى البيت وأغلق على غرفتي وعندما تبرد رغبتي وأيأس منها تمامًا أُفاجأ بها تلبس جيب أسود وتخلع شرابها وتظهر سيقانها بيضاء وليبنه تضوى في وجه الشمس أندفع إليها مرة أخرى بجوعي ورغبتي التي تكاد تهدمني.

- أنت شقي أوي.

عارفـة أنـا لي رغبة وحيـدة قبل ما أموت، بعيد الشـر عليك، متقولش كده.

ـ أكمـل، أركب أنـا وأنتي في قارب في نـص البحر نرمي المجداف. وأنام على حجرك والتيار يأخذنا.

- خيالك واسع.

- إنتي حجر؟ أنت شايفاني بتعذب.

- يا سرم. ثم ضحكت.

- أنـا عارف إن كلامـي مالوش تأثير عليكـي. عارفة أنت؟ عاملة زي نجمات السـينما في الخمسـينيات العيون السـود اللي بتلمع وتوحي طوال الوقت بالحزن، الوجه البريء. الجسم الصغير التكوين.

- أنت جواك إيه.

بدأت أرتعش وأعصابي تكاد تفلت مني وهي ساكنه تلعب في شـعرها لكي تصنع قصة على جبهتها وأنا أحبط فسـكت. وأنا أشـعر بالمرارة وأن أعصابي غير قـادرة، أيضًا أنني لو هاجمتها ستقاوم بعض الشيء. وقد تشتم. وبعد ذلك ستستلم وسأذوق العسل.

- أنت بتقرأ إيه دلوقتي؟

- بيت الياسمين.

لازم تسمع موسيقى. فاجز، باح، موتسارت تشايكوفسكي.

- أنت بتحب الرسم، ثم سكتت وأشعلت سيجارة وقالت.

- أنا حياتي لازم تتكتب. أنا أتعذبت كتير.

- أنت محيرة متناقضة، مش قادر ألاقي مفتاح شخصيتك.

أخذت تضحك: مفتاح!

- أنا كتبت عنك فصل من رواية ثم مزقتها.

- يا ساتر... ليه؟

- أنت أبهى من كل كتاباتي، كل ما أنظر في اللي أنا كتبته عنك ألاقى حاجات خايبة، أحاول دائمًا أن أجعلك... أعذرينى في التعبير... مومس، مومس فاضلة.

أنا قبل ما أقابلك كتبت رواية اسمها أفراح الجسد. أنا كنت ضعيف في ذلك الوقت وداخلي مخرب بشكل غريب كنت أحاول أن أحمل بطلي شخصيتي الضعيفة وكم فرحت عندما استدرج حبيبته إلى ثلاجة الموتى في القصر العيني وهو يحس أنه لم يفعل شيئًا في حياته له قيمة وأن حياته ستذهب هباء، ولم يهدأ إلا بعد أن اغتصب رفيقته! وهو يرى الهياكل العظمية تندفع من الأدراج وترقص حواليه وهو غير مبال! يغتصب التي أحبته حبًا حقيقًا في عنف وقسوة غير مبررة ثم جرى في الشارع صارخًا انتصرت، انتصرت تاركًا طشيش جسد ساخن، التفت رأيت الست تبكي.

- أنت مجنون مجنون!

- أنت عارفة أني أكثر الناس كرهًا للاغتصاب.

- كفاية، كفاية. ثم تركتني وسارت.

دخلت وراءها القصر. وانتظرت في البهو، أتأمل القصر من الداخل، والبيانو يرقد في البهو، وقد تغير بالتراب وتمزق غطاؤه. هل أحبها؟ أم رغبتي المطمورة التي تجعلني مدفوعًا إليها بلا انتهاء. أي بلاء؟ أي حياة؟ أي عندما تسلمت الأوراق التي كتبتها في فترات من عمرها. كانت الدموع تلمع في عينيها وأحسست أنها تكبح ألمًا، تركتها وسرت عائدًا إلى البيت.

السيدة التي تعشق الحروب

المركب رست على الشاطئ قفزت فخدعتني الحشائش النامية على شاطئ البحر ولولا يد شبل لكنت سقطت في البحر، وسرت وراءه في طريق ضيقه يحيطنا الغاب الذي يلقي بظلاله الثقيلة التي أضعفت على المكان وحشة أخافتني. خائف وأحس أن هذا الطريق ليس طريقة وأن الذي دفعني إلى هذا الطريق هو لحظة يأس، خلق لي نوعًا من اللامبالاة والاندفاع في طريق لا أحسبني قادرًا على السير فيها وأن هذا الطريق يحتاج إلى أعصاب قوية وقلب ميت قرر أن يبيع. سأكون سعيدًا جدًا لو وجدتني أقف أمام باب بيتنا. غرفتي الحقيرة أجلبتها.

هذا العالم الضيق أحبه كل البشر الذي أنا منه، الغلابة امتلأت بمحبتهم. أريد أن أعود أدخل الغرفة وأفرد اللحاف على وأنام. يا سلام النوم لذة لا يعرف قيمتها إلا الذي يدور في طاحونة مثلى. الذي ينام وفى ذهنه أنه سيصحو بعد ساعة. كارهًا الذي يدق عليه الباب، الدقة التي تسحيني من آخر العالم، تسحب روحي المتحررة من قاع عميق يظل الدق يسحب بقسوة حتى يعتقل الروح داخل الجسد. يرتد الجسد ساعتها ويحس بالألم.

أسير جواره وهو صامت. نصعد في هدوء إلى الطريق الصاعد إلى الجزيرة، المكان غارق في الأضواء وكأنها عائمة في الجو، الموتور ينز في صرير حاد. تقدم شبل وأنا وراءه اجتزنا البوابة وهيئ لي أنني لمحت عينًا تبص وسط الحشائش. الأشجار الصغيرة تحيط بالمدخل. عينًا تلمع بقوة وكأنها عين كلب. توقفت عن السير فرجع شبل وسحبني من ذراعي ودق دقات خفيفة

على الباب وسمعت صوت البيه يأتي واهنًا ضعيفًا ، كان يجلس في غرفة معزولة عن القصر. الضوء مبهر وهو يجلس على السرير ويضع على نصفه الأسفل كبرتاية ووجهه بدًا أصفر عليلًا وصلعته تلمع. ابتسم وحيان وكأنه يعرفني.

جلست جواره وهو يرحب بي. أنصت إليه ، كان يبدو ودودًا بسيطًا وبدأت صورته المنفرة تتغير.

- أبوك عامل إيه؟ آه ، فاكر يا شبل؟ لا اسكت أنت ما كنتش موجود.

- فيه إيه؟

- لما جدك مات راح فرحات علشان يأخذ أبوك يسرح بالبهائم ولما أم محمد رفضت حرق البيت بتعكم ، والناس بتطفي في النار خلعت التربيعة من على رأسها وأخذت تدعو على الفاعل واللّه؟

واللّه آخر النهار كان النعش فايت على بيت أم محمد ثم أخذ يضحك وهو يترحم على الست أم محمد!

حتى أغرورقت عيناه بالدموع ، ثم رد شبل ، فاكر يا حاج ، وبعد كده باعت فول وطعمية وربتهم لحد ما بقوا رجالة ثم استدرك البيه مرة أخرى وقال. ما قلتليش. أبوك عامل أيه؟

ثم دق جرس فدخلت بنت تلبس جيب كحلي وتضع روج خفيف لفت نظري ، كانت رقبتها سوداء ولم تفلح البلوزة الجميلة في إخفائها. بدت متغطرسة في وقفتها ويبدو على سيمائها نوع من القرف ، تقف مستقيمة تنظر إلى الفراغ. كانت مقبضة وأحس رائحتها زنخة تلبس حلق فالصو ، وخاتم فضة. لن أكن قادرًا على المشاركة في الحديث ، أحسست فجأة أنني غريب ، الشيء الذي أحسن أنه قريب منى هو الحائط الذي استند عليه ، ملمس الحائط الناعم ، الإضاءة ، الستائر الرمادية ، الصور المعلقة على الحائط

التمثال الخزفي، المنبه الجميل، الكراسي، كل شيء يحيط بي، أريد أن أكنس الموجودين وأظل وحدي أنام على الكنبة ناظرًا إلى الحقول من الشباك الواسع وموسيقى تسري بنعومة في الحجرة، أتذكر الكتابة ذلك الوقت. سأعد كل شيء في هدوء. الأقلام، الأوراق الراحة ستجعلني أستقر وأبنى رواية كما أشاء. انتبهت لدخول الطعام على صينية نظيفة يغطى الأكل جرنان ينزل البيه ويرفع شبل الجرنان فاصوليا، أرز، لحمة، أخذ ينادين لكي أكل والبيه يلح على في قوة كي أكل تقدمت للأكل وشبل يأكل في نهم ويضع أمامي اللحم. كنت مغتاظًا من إلحاح شبل لكي أكل اللحم، إلحاحه كان يشعرني بأنني محروم لم يكن البيه يأكل معنا مما زادني حرجًا حتى قال: كان نفسي آكل معاكوا. أصل أنا عندي سكر أكلي مخصوص.

رد شبل: يا بيه سيبك من كلام الدكاترة، اللي مكتوب، مكتوب. قلت. ربنا خلق الطب والدواء. وعندما انتهينا دخلنا حمام ملحق بالغرفة. حمام فخم غسلنا أيدينا ثم عدنا فأشار البيه إلى شبل الذي أخرج من تحت السرير زجاجة خمر وأخذ يصب في كأس جميل أغراني أن أمد يدي وأخذ الكأس. الحقيقة أنني كنت مصممًا بيني وبين نفسي على ألا أشرب حتى لا أسكر وأفقد السيطرة على أفعالي. أصابتني حسرة من عدم قدرتي على الرفض، أن أقول لا، أن أمتلك إرادة أجبر بها نفسي على أخذها بشدة، كنت أتمنى أن أكون صلبًا كما أردت لم أكن أشرب خمرًا من قبل ذلك سوى بعض زجاجات البيرة رشفت بهدوء، وكأنني شربت قبل ذلك ألف مرة رغم النار التي بداخلي، كان البيه ينظر إلى وشبل صامت وهو يشير له أن يصب لي. بدأت استرخي ويتسلل لي نوع من الفرح الجميل وبدأت أتصالح مع الكون إلى أن دخلت علينا الست. الست تقف قبالتي ورغم ذلك

عانيت أشـد المعاناة وأنا أمنع نفسـي من النظر إليها. رأسي تثقل شيئًا فشيئًا وأنا أركز لكي أسمع الكلام جيدًا وأضبط يدعى لكـي لا تخدعنـي. انتهيت وراح السـكر الخفيـف مني. عيناها صافيتان جميلتان. أتعذب وهي تجلس قبالتي ترتدي جلبابًا مطرزًا بخرز في شكل هرمي على صدرها. أحاول أن أنصت لكلامها ولكـن خيط الحديث يروح مني وأنا أسـير جوارها على شـاطئ البحر ويدي تقبض على يديها ، وهواء ناعم يغزونا والأسماك تقفز فـي أول الليـل، فقط أنا وهي بدون كلام وقفـت قبالتها ، وموج البحر يسرى ويغمر قدمينا ، أتلذذ بالنظر إليها أن أتحسسها بيدي وعيني إلى أن زاد صوتها الذي أخرجني من غيابي.

- أعمل خير في حياتك أنت قادر تعيش كيف. موت أحسن.

نظـرت إليهـا وتبخرت مـن أحلامي. زغب ناعم على شـفتيها صدمـت وكأنهـا قبيحة. أريـد أن أتـرك المـكان، أن أجرى، أصـرخ، كانت ترتج وتشـاور بيديها وكأنها على وشـك إعلان الحرب. صوتها صفير حاد لا أستطيع سماعة، فقط أضغط على أعصابي كي أحتمل.

- أنـت ما ليكش ولـد ، لو ليك كنت قتلتهولك ألف مرة أنت عقيم. عقيم!

مـاذا لـو بكيـت الآن؟ أنا مؤهـل للكبار. أريد فقط سـبب، والدموع تنهمر وكأنني فقدت كل الذي لي. أهلي، البلد العالم، فقدت كل شيء في ضربة واحدة مركزة وقوية تهد كل البناء وأظل وحدي في كون معاد وقاس. ثم قفزت من مكانها. فأزحت نفسي بعيدًا عنها ثم مسكت يد شبل.

- الأيد دي قتلت كل اللي أنا بحبهم كفر عن سيئاتك اعتزل الناس. أقعد في مغارة وادعي ربنا يمكن يغفر لك.

البيه يجلس لا مباليًا وشبل ينقر بيديه على البلاط إلى أن قال: اقعدي يا ست علشان الضيف. لم تنظر إلى سكنت وتركت يد شبل وتركت المكان ونحن ظللنا فترة قليلة وخرجنا هواء رطب لذيذ وسحائب سوداء بدت تتآكل، أفسدت على كل شيء. جلسنا على الشاطئ وأخرج ورقة الدخان ولف السيجارة وناولني واحدة وأشعل هو الآخر واحدة وأخذ يشرب حتى أتت المركب. جلست قبالته فمال تجاه الدفة ومسكها وأخذ يوجهها ثم أخرج فأرًا صغيرًا من جيب السيالة وأخذ يضغط عليه والدموع تترقرق في عينيه!

الأفراح أقيمت ثلاث ليال، والخيول ترقص على وقع ضربات الطبل البلدي. الأفراح في القرية قليلة. البيه مد فروع الكهرباء حول الدوار والسرايا القديمة قبل الانتقال إلى الجزيرة فبدأ أعجوبة في البلد. ذبح العجول ووزع على الفلاحين الذين يعملون عنده، عزم الأعيان من كل البلاد، جلس في الكوشة وكأنه يتزوج لأول مرة وكان سعيدًا جدًا حتى إن وجهه بملامحه التركية كان يبكي الدم، أحضر كاريتة من القناطر الخيرية لكي تزف فيها. حضر المطرب الشعبي (شفيق جلال) والشيخ (طلعت) وفرشت الأرض بالرمل. حول السرايا نمل من البشر، وكراسي مصفوفة لكبار الأعيان ورجال الحكومة، وكانت ليلة الزفاف في شكل أسطوري! سحبها وصعد بها إلى الدور الثاني، ثم تركها لكي يودع رجالات الحكومة. وقفت تنتظر، تنظر خلال خصائص النافذة.

الشمس انكسرت حدتها وكلما وهنت زاد رعبي وقلقي. أترجاها أن تظل كما هي. كانت تريد أن تظل وحيدة في القصر كل خلاياها ترتجف وهي تدخل عالمًا غريبًا عليها. هي التي ظلت طوال عمرها عالمها محدود من المدرسة إلى البيت لم تشتك.

حتى بعد وفاة والدها ظلت حتى وصلت إلى المرحلة الابتدائية ونجحت بتفوق. الأم بكت على بكاء الابنة لكي يتركوها تكمل المرحلة الإعدادية ولكن البكاء ذهب هباء، حتى إن الناظر الطيب حاول هو الآخر مع الأخوة ولكن كلامه كان غير مرغوب فيه ولم تراه إلا بعد أن سافر ابنها لأمريكا. وابنتها تزوجت أستاذًا في الجامعة، ذهبت إليه. كان قد كبر ولم يعد يرى جيدًا. وعندما عرفته بنفسي أخذ يرحب بي في التزام. ساهمًا، حتى إنني أحسست أن عقله قد تاه. وهو ينظر إلى في بلاهة. كانت تتكلم في هدوء وصراحة. هل هو لم يتحمل كل هذه القوة التي بداخلها؟ أم أنه أحس أن داخلها قد خرب ولم تعد تلك البنت البريئة، لا. لم يكن يتصورها أو يطلب منها أن تكون رسوله. أبدًا، كان يريد أن يحس بها. يعرف مشاعرها، أحلامها، حزنها، فرحها. أحس أن كل شيء قد دمر تمامًا. أم هي حاولت إن توصل كلامها جيدًا. الكلام دقيق محايد ورغم ذلك لا يفهم ما تقول وكأن الرسالة تصل خطأ. كلما استغرقت في الكلام عجزت عن توصيل المعنى له. حتى إنها سكنت فبدأ يتكلم ويذكر أشياء لم تحدث قط. ثم قال فجأة. أنت مشوهة، لم أفهم ما قال. ملت بأذني كي أسمع جيدًا وهو يكررها حتى تركت المنزل بعد أن وضعت النقاب على عينيها. تهرول حتى إنها كادت تتعثر حتى وصلت إلى آخر الشارع وركبت السيارة، واندفعت، وهيئ لها أنها رأته في المرأة يلوح لها. ماذا قلت؟ ماذا فعلت، كنت أسرد حياتي أمامه. رأيه نجاحاتي، كيف أعيش بعد أن امتلكت حريتي وإرادتي. ركبت السيارة وخلت البيت. وقفت أمام المرأة وخلعت ملابسي، أنظر إلى جسدي الذي كسته الدهون، أسناني الصفراء من السجائر. شيء غزاني أنغرس فيّ ما الذي جرى؟ شيء يشبه الموت أحسه داخلي. لم أستطع أن أضع ستاره بيني وبينهم.

حاجـزًا ما لا أسـتطع أن أجد أحدًا بعدهم. بعـد أن ماتوا ، مرض تدفق داخلي، هذا المرض هو الذي حمأني وجعلني أنتصر عليهم حتى إنني أصبحت منهم، أي عذاب؟ ماذا لو تحايل قليلًا. صحيح أن إخوتي كانوا عنيدين ولكن يوجد طريقة غير القتل. لو قالوا لـي ما رفضت، فهو ليس سـيئًا وفيه رقة وضعـف، مغمورًا داخل وجه شـر من وداخله طفل يخاف من الظلمة حتى أنني أغلق النور وأرمـى جسـدي عليه فيقوم مذعورًا يجـرى. يتخبط في الحوائط وأنا واقفة أضحك أضحك.

الشـمس تنسـحب روحي وينسـحب الدم في وهو يدخل علي. أشـد أنواع الرعب والعذاب الذي تعرضت له. وحذاؤه يدوس على البلاط. يصعد السلم ويدوس على قلبي حتى أدماه ومات موتًا غير مجازي... سـكن ومر كل شيء... كيف أعبر عن الفوضى التي تـدور بداخلي... ندى رعبي وهو يدخل يدور حولي... وجهه مقلبظ أحمر وعين صفراء، يدور حولي ناظرًا إلى الأرض، لم كأن أريد شـيئًا سـوى أنا أنام... فقد أنـام وبعد ذلك كان أول شـيء فعلته أن أثـرت عليه لكـي يبني لي منزلاً في الجزيـرة. كنت أريد أن أبعد عن المكان الذي شـهد استسـلامي وهو يضع يده في طوق فستاني يتحسس نهدي والأرداف ويغرس أسنانه في شفتي وأنا في كامل بلادتي... لا أحس بشيء... كل شيء يمر بي دون أن أحسه وكأنه يحدث لأحد غيري وكأنني أراه على شاشة التليفزيون... أي خراب أصابني!

البيانو الأسـود اللامع يرقد في البهو وقد سـار رفيق وحدتي أجلـس على البيانو وكأنه عشـيقي أضغط على الأزرار تناسـب الموسـيقى ناعمة تترقرق في أنحاء القصر... كانت ابنتي تقول إننـي لو تعلمت العـزف وأنا صغيرة لكنت أصبحـت عازفة بيانو

عالمية ، كنت أضحك وأسخر منها ورغم ذلك كنت سعيدة فعلًا... أنت يا ماما صوابعك دهب أنت بتعزفي أحسن مني وأنا اللي معاكي معلماك... أحفظ بسرعة غريبة كل المقطوعات والسوناتات والكونشرتات جربت أكثر مرة أن أعزف مقطوعة من وحي حياتي، وفشلت ووجدت ضالتي في فاجنز، في وحشية وقد تملكني، أندفع وأصابعه المجنونة تضرب على البيانو تبحث عن طريق للخلاص.. يجأر البيانو... وجسدي يخرج مني أضرب وكأنني تخيلت وكأن موسيقى تخرج مني... أضرب وكأنني تخيلت وكأن موسيقى تخرج منى... أيه سعادة... أي فرح... أي عذاب... ورأيت أنني أخرج كحية تتلوى في قلب دخان يغرق المكان حيث إنني لم أكن أرى إلا ذاتي... أقف مرتدية فستانًا أزرقًا غامقًا مغرٍ... يبين تفاصيل الجسد بدقة ، كنت خجلة من كوني ارتدى هذه الملابس... أنا المتحفظة في ارتداء الملابس... أجلس شبه عارية تمامًا... على كرسي من الخشب الزان المربوط بحبل كتان. الكرسي مطعم بالصدف ورائحة الصندل تعبق المكان والخدم والعبيد والخصيان والموسيقيون على آلاتهم يعزفون والجواري يرقصن... المكان به سجادة كبيرة منقوش عليها أسد يجرى وراء غزالة مشدودة السيقان حتى تكاد تتمزق وسماء زرقاء صافية خالية من الغيوم وزهور البشنيش غارقة في مائها... ويرقد على يدي ثعبان يدور برأسه في المكان... وأنا مغمضة العينين ويد حانية تدلك جسدي... إشارة تدل على إعدام الحمام... أقوم أخوض مليء بعطر العنبر والعود البنفسج، تعطرت بالفل وخلاصة الريحان وذهبت إلى النهر ، الرمل أبيض والنهر صافى بين قاعة... وحدى أخوض بملابسي حتى وصل الماء إلى سرتي... والماء البارد يسرى في جسدي... وتوجهت إلى السماء... إله السماء... إله النهر الخصب، النماء... جئت إليك باركني يا

إله السماء... أنت تعلم أنني لم ألوث النهر... لم أرتكب خطيئة... حبيبي منك كم هو جميل... النهر هادئ والأسماك تقفز... خرجت وأن أحس بالفرح... ألم القواقع وأن طائر.. الفرح ينط في قلبي كنت خفيفة كريشة سعيدة أجرى وأنا أحس أن القهر قد أنحسب منى... دخلت القصر والأصدقاء في انتظاري قلت:

- أفتوني في أمري!

- أه! لقد جنت السيدة...!!

- لم أجن ولكنى عشاقة!!

- يا للعار!!

- يا جماعة هو ملك لا تفعل به ما تشاء.

قلت أجرب نفسي على عبادة... قلت أمتحن جسدي... قلت أجلس وحيدة أرتدى فستانًا أحمر طويل مقطوع حتى السرة... قلت... قلت أضع طعامًا وأدعوا ضيوفًا ، قلت فلتكن الحديقة لي وله فقط. نزلت سارت وسط أشجار الفتاح توزع فتنتها على مخلوقاته حتى صدمت بالفتى الذي أخذ يمسحها بعينه خائفة من الاقتراب... تركت السيدة ظل التفاح ووقفت في الشمس... خدع الفتى... اقتربت منه... هل كان يشبه موسى الكومي!

أم هي التي شكلته كما أرادت، هل أحبته قبل الرؤيا؟ أم أنها تحبه طوال عمرها؟ وذاكرتها لا تحمل إلا إياه. أفتح الباب... أنظر إلى الفراغ المكين الذي ملك عمق الليل دهشة الفراغ اهتزت خفيفة لزهور النرجس، الفل، أوراق العنب الصغيرة المشرشرة... يجب الآن أن أحتفل بموته... بتحرري الكامل... لم أحد يسيطر على... أصبحت حرة... ورغم ذلك لم أغير من روتين حياتي إلى اليوم... سأخرج... سأحذفه من ذاكرتي تمامًا... سأخرج بالسيارة... سحبت زجاجة خمرة من زجاجاته وفتحتها... كل شيء

يساعد، يحتفل معي، النجوم التي في السماء، الهواء الطري. أندفع بالسيارة بلا هدف، أدخل عمق الصحاري بطرقاتها الخطرة وتعرجاتها وكلما زادت السرعة، زاد فرحي. زاد تحديقي في سهم الضوء الذي يشق العتمة وأنا أتساءل: هل أنا امرأة بالفعل؟ أم أنني امرأة أخرى تعيش بطريقة أخرى... ليست من اختياري... تفوق طاقة جسدي... تقوى حريتي في الفعل... من أنا؟ ولماذا بعد أن ملكت حريتي لم أطلق من البيه. كان في مقدوري أن أفعل أشياء، حياتي ليست حياتي وإرادتي ليست إرادتي... كيف أفارق؟ أكيف أعيش يومًا واحدًا ولا أحس أن حياتي هشيمًا وتحت قدمي كثبان وأنني سأغوص وأزول ويبقى القصر شاهدًا على خرابي... أكبح السيارة.... أنزل وسط الخلاء تاركة السيارة وأجري في الصحاري ثم وقفت على تل عال أتذكر أنني أقف على رأس أرض أبي وإخوتي... أشجار المانجو شاخت وتساقطت الأوراق وبدت أفرع شائخة... ولم أعد قادرة على استدعائهم كما كنت أفعل في أوائل العمر، نلعب وأخوتي يلعبون لعبة التحطيب... الآن أنا وسط هذه الصحراء الممتدة وحيدة، أولادي أبعدتهم عني ولا أحس نحوهم بأية عاطفة... الرمال البيضاء رطبة وتسللت إلى سكينة... أخرجت الزجاجة وأخذت أشرب... نمت على الرمل ناظرة إلى القمر الذي بدأ مكتملًا والذى يرفع السحب التي تتراكم بغيوم لا تنتهي... الوقت يمر وبدأ القمر ينغرس في العتمة... الخلاء موحش... ورغم ذلك لا أستطيع مغادرة المكان... لقد أصبحت أسيرة للقمر الآفل... ولا أعرف أيرصدني القمر أم أنا الذي أرصده وأبحلق فيه.. وأتذكر جسدي ورغباتي التي بخلت بها أعوامًا طويلة، وكأنني منذورة لشاب، لشاطر أحلم به... أحافظ على كل شيء بي في سكون وزاد بخلى بجسدي يوم أن وقفت عارية تمامًا... كأنني فرحة بي، بجسدي. وعندما دخل على البيه ورآني وقف ولم يقترب

وأنـا فوجئت أنه لم يتقـدم... اقتربت منه أخذت أضحك، أضحك وهـو يخـرج لاهث وقد غمـره العرق... ارتديت ملابسـي وخرجت وراءه في الحديقة... كان تحت شجرة الجوافة... آه لو أستطيع أن يكون لـي طفلًا جميلًا مكتملًا... أترك العالم الشـرس المليء بالخداع. أدخل بوليدي في قلب الصخر وأجعل له بابًا من الفولاذ وأكون الأب، الأم، الأخت... أكون له العالم الذي حرمت منه.

القمر اختفى... وهواء بارد يتسلل إلي... السحب تتكاثر وقلبي يضيـق بالفراغ قمـت باحثة عن الحذاء الذي وجدته مغروسًـا في الرمل... نبـات العكرش بدأ كقنفذ متوثب... انحدرت فوق التل جريًـا... حتـى اقتربت من السـيارة... أخذت أنفض الغبار وأسـوى شـعري... أرتكب السيارة واندفع في عناد ومكابرة لن أستطيع أن أعود بالزمن.... أوقف الجفاف الذي يسـري فيّ... جفاف قاتل وكأنه سرطان يرعى بهدوء وصلابة يندفع في كل الجسم... وأنا مستسـلمة تمامًا... تهدمت الشـيء المرير أنني لـم أعد أرى أحدًا قويًا قبالتي لكـي أحاربه... لكي أنتم لحياتي... التي ضاعت... لـم يعد لي إلا طريق واحدة... أن أحذف تلك المرحلة من حياتي... وأتسامح مع روحي... أستمتع بحياتي في الفترة الأخيرة... أسافر... أركب الطائرة... المركب، كل شيء متاح، فقط أخرج... خنقت بالعزلـة... بالعقـرب الذي بداخلي يفسـد عليّ حياتـي... تعبت من انتظـار من يغيرني بالقوة بدفعي في اتجـاه الطريق الذي أريده... لقد سممت من الداخل سمم جسدي، تمامًا، بالمكان بالأسوار التي تحيط بي بالماضي الذي يحيط بي، بالماضي الذي يثقل على الحاضر.. هذا الوحل اللعين الذي أخوض فيه... حقائب السفر مُعدّة وابني سينتظرني في المطار وأنا على، فقط أن أخطو أول خطوة في اتجاه المطار... الأرض ستظل كما هي... القصر سيظل كما هو لم يعد شـيء سوى دخولي القصر... وإخراج السكين والحفر

على الباب... تعبت!!

فتح خصائص النافذة ثم وأربها وظلت عيناه سهم حائر بين زوجته التي تجلس في الحديقة والفارس الذي يركب الحصان غير مبال بأحد... ماذا لو لم يأت الفارس ولم تجلس الزوجة في الحديقة... لم يستطع أن يكظم غيظه... سيموت؟ زفرة... كان يحس أنها آخر عمل سيقوم به... سيرتب كل شيء بهدوء، ولن يشرك شبل في شيء... سيدبر هو كل شيء رغم أنه كلما فكر فيه... كان مصممًا بدت صورة الأب تتراءى أما عينيه ساخرة منه... خايب خايب يترك البيت وهو يحس أن عقله قد بدأ يفقد اتزانه... ضرب قبضته في جدار التوتة!

- عايزني... قالها شبل.

- لا... خليك أنت يا شبل.

المساء اقترب وهو سائر على الجسر، نزل على الشاطئ ونادى الصياد... القارب يا له... هاتف هتف له أن يذهب لعزبة أولاد سليم... سيجد أحدًا ما... حل... هو يعرف ذلك عدى بالمركب وسار وسط أشجار الموز... إلى أن وصل إلى البيت... خرج كبير العائلة مرحبًا... عندما دخل وجد موسى يجلس... أصفر اصفرار الموت، ثم تمالك ذاته وأخذ موسى بالأحضان، ثم عتب على موسى أما أولاد أبو سليم بأنه حرق القمح وسم المواشي. وأعلن كمان أنه الفاعل وقال البيه: وطبعًا يا رجالة... دا يهز مركزنا في البلد. محمد أبو سليم، قام وقبل رأس البيه وقال أنا اللي غلط في حقك، ورقبتي سداده، موسى راجل وما يتعيبش وجدع وإن كان غلظ.. آه ابنك برضه... أنت إلى مربيه... قام البيه زاعقًا: لا يا جاح... أنت كده ضيعت حقي عند ذلك.

رد موسى: أنا ما غلطش يا باشا... وأنت عارف السبب.

- مش مرة توقع بيننا وتخليك تعادني يا موسى.

- الرجالة تحكم، دي استجارت بي... كمان أنا جيت لحد عندك، وقلت لك... علشان خاطري... وخالي شبل شاهد.

- أنا كنت عايزها في الحلال.

- لا... مش صحيح.

- يعنى أنا كداب.

- أنا ما قلتش كده... بس أنا تحت التوتة قلتلك هي مالهاش في الحرام.

- وأنا برضه ماليسش في الحرام.

- طيب كنت بتخبط عليها الساعة اتناشر ليه.

- تقوم تهددني وتقول لرجالتي لو دخل الشارع حايكون ميت، يرضيك يا حاج.

لا... موسى غلط.... ثم قام وأحضر ورقة وقلم وكتب نصف ما يملك وهو كثير إلا ووضع الختم على الورقة.

- دا حقك وناولها للبيه الذي قرأ اللي فيها ثم مزقها!!

- عمومًا موسى برضه ابني وهو عارف كده كويس.

ثم قام موسى وأخذ البيه في حضنه وقبَّل رأسه والحاج عابد سليم ذبح شاة ولم يذهب إلا بعد أن اتعشى وعاد هو وموسى إلى البلد يدًا في يد. وفي الصباح طلب السيارة وطلب من السائق بجوار السيارة، الكلاب تنبح شراسة والشاب يجري لمقابلة البيه وينادي الكلاب لكي تبتعد... مرحبًا يا مرحبًا، العجوز الذي تجاوز المائة، كان يغرش كوعه في الرمل أمام البيت، وعندما اقترب قام أخذ البيه بين أحضانه. مناديًا، ياد يا غول، أنده ياد لأخوك عطية وسيف، وناصر اجري يا... يخرب بيتك...

وبيت سنينك... أخذ العجوز يرحب بالبيه.

- الله يرحم أبوك كان عارف أنه له صديق في الجبل.

- تعيش وحنا لا نستغني عنك.

- والله استغنيت يا راجل، شاي، يا غلام.

- قهوة لو أمكن.

- آه موجودة يا راجل الخير.

- ياد يا جوده صب الجهوة، وروح شوف الغنامات يا وليد.

العجوز شاربه طويل غطى فمه وعينه تتز ماء.. طويل يضع على كتفه عباءة وشال أبيض.

- كيف الأحوال في البلد.

- دا اللي جابني النهاردة.

- فيه حاجة يكون "مشكل" إحنا جاهزين.

- قتل.

- دي عايزة ترتيبه لكن بسيطة.

- موسى الكومي.

- وماله بس المهر غالي.

- وأنا جاهز.

- ثلاثة آلاف جنيه ألفين بعد الزفة.

- كتير.

- دا فارس ومسلح ومن عائلة، وأن سيد العارفين أنه معه سلاح وممكن ولد يروح فيها.

- ماشي... أنا موافق.

ماذا لو لم يمت الفارس؟ وبدا ساهمًا وبدأ عقله يتوه.. وكان

وجود موسى هو الذي يجعل عقله يقظًا... بدأ يحس بالفراغ بأنه متروك مهجور... الزوجة في عالم آخر وجلسات التوتة لم تعد مجدية وبها نوع من التواطؤ... لم يعد أحد يأتي لي بالأخبار... قرر أن يبحث هو في عز الظهيرة والشمس تقترب من الأرض... يتسلل بين أشجار الموز... تحت بطن الجس... وسط الغاب على المساقي... في الخص يجد الفلاح مع زوجته وهم يأكلون، يتكلمون في أي مصلحة يجدون البيه في قلب الخص، يظل موال اليوم يرسم خريطة بالأماكن التي تلصص عليها في الظهيرة، كذا في الغرب كذا في نصف الليل كذا، بدأ شيء غريب ينتابه يجعله الممسوس لا يجلس على الأرض، لا ينام، عنده إصرار على أن يصل إلى ما يريد أن يصل إليه، يلتقط حرامي يسرق الموز، امرأة تورق الموز وجسمها ظاهر.. حتى أصبح موهوبًا في تحويل كل البشر إلى رغباته التي يريدها... هل عيناه هما السبب؟ أم أذنه التي تظل تتبع الأثر إلى أن تصل إلى حيث الرغبة التي يريدها؟ لم يكن يهمه أن يتلصص على طفل، رجل، امرأة... الذي يهمه فقط أن يكون الغائب الحاضر... يحس بشق غريب عندما يرى جسد امرأة شديد القبح... شعر أكرت، يهتاج... حتى إنه كان يتلصص على زوجته ويظل طوال الليل في البيت لعله يراها في وضع شاذ... أن يراها في حضن عشيق، لن يغار كيف تعيش بدون ممارسة الجنس وهي الجميلة؟ بعد موت موسى لم يقترب منها أحد سوى ابن محمد الفلاح... غلبان يظل طوال النهار يدور حولها لكنه عاجز مثلي... أنا أشفق وأحس أنه متعب مثلي... أنا وهو نعيش حالة فقر غريبة... حالة لا إنسانية... ورغم ذلك لا يمل الزيارة. والدوران حولها واستباحة ذاته في مواجهتها... الليلة رآه شبل جوار أحد البيوت يلصق أذنه بالشباك عاجزًا عن إدراك أي شيء... سحبه شبل وصعد به إلى البيت وعندما قال للست قالت:

دا مكتوب.. إنصاتي أم حرماني من الإنصات، ثم مسك سكينًا وجرى وراء الست: أنا حاموتك... أنا حاموتك... كان يرتعش وهي تضحك وتجرى أمامه وكأنها خائفة منه.

- يا أما، يا أما..

- أنا خايف عليك عايز أريحك... لا زم تموتي علشان ترتاحي.

- ثم جلس على الأرض وقد نسى الست تمامًا.

- عايز أروح الترب عشان أشوف أبويا يمكن أرتاح.

وفي يوم أهدى له ابنه آلة تقرب المسافات فرح بها أشد الفرح وأخذ يمررها على البيوت والبحار، والموز والأشجار، الترع الذي كان يغيظه فعلا هو أن الآلة لا تنقل الأصوات، يعلق الآلة في رقبته ويسير بها على الجسور حتى يتعب ثم يعود في آخر النهار في شبه إعياء... كل يوم يزيد المسافة بعيدًا عن البيت إلى أن تأخر فنام على الطريق وأكل موزًا أخضر وسار يقطع الجسور، يسير في الصحاري حتى لم يعد ينظر وراءه!

ريح فبراير

رواية

(١)

انتبه على صوت الفجر يأتي من الجامع القريب من العمارة التي يسكنها في حي العجوزة، فتح عينيه محدقًا في الظلام، يدير رأسه في الغرفة، سحب الفوطة من جواره ومسح بها وجهه، وظل ساكنًا يحس خلالها أن صحوه الآن ليس عبثًا، بالتأكيد ليس لتلقي الوحي، فمحمد آخر من تلقى هذه الهبة، ورغم ذلك يحس أنها إشارة ما. اعتقد كذلك حتى لو كان وهمًا، ماذا يضيرني؟! يتساءل... لقد توقف عن إخراج الأفلام منذ مدة طويلة؛ لإحساسه أنه لم يعد قادرًا على تجاوز رؤيته التي جسَّمها في خمسة أفلام وفيلم تسجيلي، والآن لم يعد يفعل شيئًا سوى تصوير بعض أغاني الفيديو كليب. تحسس بيده باحثًا عن زر النور، ضغط على الزر، لم تحتمل عيناه الإضاءة القوية فأغمض عينيه. غرفة النوم يعتبرها غرفة عمليات، يظل خلالها يقرأ، يكتب، يسمع الموسيقى. ريفي رغم محاولاته الطويلة في إقصاء كل ما هو ريفي داخله. يحب المدينة، شوارعها، مقاهيها، حواريها، أضواء النيون، الإعلانات، الحدائق العامة، الملاهي، فوضاها، الجنون الجميل الذي يسري فيها. حاول مرات أن يخرج فيلمًا عن الريف، وكلما تحمس ووافق على السيناريو يتراجع، لم يكن متعاطفًا، يحس أنه ضد المكان والمكان ضده، يرى المكان أمامه في خياله، ويحس بكمّ الغلظة والواقع القاتم.

عندما تحرك أحس أنه مخطئ في حذف جزء من حياته، وقال إن هذا المحذوف قد يحتوي على ما هو يخصني ويخص العالم الذي أريد تحويله، وأن مجرد إيماني بمجموعة أفكار ذهنية

أريد توصيلها من خلال وسيط آخر هو شريط السينما، رومانسية وكلام خائب. أسوأ شيء فعلته بحياتي هو أنني صدرت الشخصية القوية، القادرة، الحاسمة، الظروف ساعدتني في تقوية هذه الصورة، حتى صدقت أنني قوي بالفعل، وأخذت أتصرف على هذا الأساس. شخص قوي قادر على كل شيء حتى الآخرين، استطعت خداعهم حتى أتت هي لكي تكشفني أمام ذاتي، وأنني ضعيف فعلًا، وأكاد أكون مهدمًا، ولكن ماذا أفعل؟! كتبت في الأجندة: "بي رغبة في تجاوز كل ما مررت به، أن أولد من جديد، ولكن الذي يعصف بكل ذلك أنني أحس أنني لست بحالة طبيعية، وأنني مهزوم نفسيًا، وأن كل الأفكار التي تمور برأسي الآن قد تكون أفكارًا وقتية اخترعها ذهن مشوّش".

عدد الأفلام التي قام بإخراجها وأخذ يدخلها في الفيديو، الواحد وراء الآخر حتى أنهاها. ما الذي ينقص تلك الأفلام الآن؟ كان مشهورًا بحرفته العالية، هذه الحرفة غيّبت الإنسان وجعلت وجوده مجردًا بشكل بأس، وتذكر كلمة لروبرت روسيني: "علينا أن نعرف الناس كما هم".

فتح البلكونة ونظر إلى السماء، لم تكن صافية تمامًا، غيوم خفيفة تمر تودع المكان، فاسحة للصيف؛ لكي يتقدم في ثبات، سكون يلف الكون، وليل بديع. دخل يبحث عن الكاميرا؛ يريد أن يفعل شيئًا، وضعها على الطرابيزة، وأحس أن التنازلات التي قدمها في حياته كانت فادحة، وأن المدينة التي أحبها بعنف قد خدعته ولم تعطه نفسها كما كان يظن، وإنه أكثر سذاجة من والده الذي ظل يسخر من طريقة حياته طوال عمره ومن جنونه، فقد ترك القرية باحثًا عن روحه المعلقة بالأولياء، سار على قدميه سبعين كيلو حتى وصل إلى الحسين ونام حتى قام على صوت آذان الظهر، صلى. وهو خارج من المسجد وجد شيخ أحد الطرق

الصوفية يدفع امرأة بيده حتى أسقطها على ظهرها، بان فخذها، وذهل الشيخ، وقف مبهوتًا حتى ابتعد الشيخ عن المكان، جرى الوالد وراء الشيخ حتى دخل مطعمًا، ووالده يفكر ماذا يقول لهذا الشيخ، وماذا يفعل. دخل المطعم ولم يفكر أي شيء يريد أن يقول له، جلس على الكرسي في مواجهة الشيخ وهو يأكل، ينظر إلى ملامح وجهه، والعرق ينز منه، ووجهه يطفح بالدم. لاحظ الشيخ أن الرجل ينظر إليه في قوة. توقف عن الأكل ونظر إلى الريفي: ألك حاجة؟ لم يرد فاقترب منه برأسه:

ألك حاجة؟

كظم ما يملك من غضب، وقال:

أتعرف محمدًا؟

أعرفه بالطبع.

أتعرف القرآن؟

أعرفه.

لماذا ضربت السيدة أمام المسجد؟

لكي...

امتدت يده نحو الأكل وقبض الأرز بيده في قوة وعنف، فنز الدهن والسمن من بين أصابعه وقال له: "الدنيا جيفة وطلابها كلاب".

فانهار الشيخ وخرج منه عويل ثكلى، والتمّ من بالمطعم حول الرجلين؛ الرجل الذي يبكي والآخر الذي يقبض على الأرز في يده.. ثم دفع يده فتناثر الأرز على وجه الشيخ وملابسه، وأزاح الواقفون وخرج من المطعم وصوت عويل الشيخ يتبعه.

عاد إلى القرية شبه معتوه يظل يدور في الزوايا والمساجد

حلقـات الذكـر.. ومـن بلـد إلـى آخـر حتى تعـرف عليـه الإمام السـبكي، فعاد به إلـى البلدة، ومن يومها وقـد انحرفت حياته وقد رفض رفضا باتًا أن يذهب للعمل حتي تم رفدة وترك لحيته، يقـرأ القرآن فقط، لا يسـتقبل أحدًا، حتى الكتـب المعبأة في كراتين، وكانت تأخذ مساحة كبيرة من الغرفة، أخرجها إلى الشارع وأشعل فيها النار؛ كتب الشريعة، مجلة المنار، ألف ليلة وليلة، مجلة الرسـالة، أعداد من جرنال السياسة، كتب لجورج زيدان، علي أحمد باكثير، لطفي السيد، المنفلوطي، العقاد، ذكي مبارك، وأعداد كثيرة من مجلة الهلال، ودخل غرفته بعد ذلك لا يسـأل عن أكل أو شـرب، حتى تقوم أمي بإرسال الأكل له، وكل فترة يخرج يشتري ورقة دخان ودفتر، ويظل يدخن حتى ينتهي منها، ثم يبدو بعد ذلك أنه نسي أنه يدخن، ثم يخرج يسير في الشوارع، يردد عبارة واحدة، يظل يردد فيها دون أن يمل، وقد تكون هذه العبارة مثلًا شعبيًا، أو حديثًا شريفًا، أو إعراب جملة "هذا تاريخك الذي حذفته، ماذا كسبت؟ حذفت هذا الجزء من حياتك، واندفعت إلى المدينة شرهًا ولا تقول لي: إن المدينة هي التي أفسدتك".

أكثر الأشـياء التي تغيظني فعلًا هو قـول: أنا بريء، ولكن المدينة أفسدتني، لا. هذه شراكة تعرف بنودها جيدًا وإلا عليك الخروج، الهروب منها، دخلت المدينة وأنت حقير مفلس، وداخلك رغبة وحشية في هدم وإنها كل التقاليد داخلك.

كان وسيمًا ويحس بأنه له تأثير قوي على النساء، وله نظرة ما يعرف من خلالها التي ستستجيب له والتي ترفض والتي تحتاج إلى صبر، وأي المداخل يدخل منها حتى إنه في خلال شهر من دخوله الجامعة مارس الجنس مع فتاة تعمل في إحدى أكشـاك تصوير المستندات، واستطاع إقناعها بأن تمارس الجنس مع صديق له،

حصل منه على عشرة جنيهات؛ لكي يدخل السينما مع صديقه، وعندما تعرف على الشيخ في فترة لاحقة في بار وسط البلد كان يرى فيه نموذجًا للفنان أكثر منه ميكانيكيًا، وكان يحلم أن ينفذ فيلمًا عنه.

عرّفه الشيخ على المدينة من الغرز، المقاهي، البارات، علمه كيف يسوق سيارة، عرفه ببعض العجائز وكان يمارس الجنس معهم مقابل مال، وكان سعيدًا بذلك، ويعتبر تلك الفترة من أسعد الأوقات وأجملها وأكثرها خبرة في حياته، عرف خلالها الكثير، عرف كيف يكون الناس رقيقة إلى آخر مدى، وكيف تكون قاسية حتى القتل وهي تبتسم، كيف تثير، كيف ترتدي ملابسك، وكيف تقبل الأيادي. هو لم يكن يريد أن يصعد من طبقته الفقيرة إلى طبقة أخرى، هو كان يريد أن يستمتع بالحياة؛ يأكل جيدًا، يرتدي أفخر الملابس، يعيش كالورد.. أنيق، كسول. ارتدى في يوم بدلة أسموكن غاية في الروعة، وهو ذاهب إلى الأستوديو انحرف على ورشة الشيخ، جلس في الورشة على حصيرة معفنة غير مبال، يتحدث مع الشيخ عن النساء وكيفية استغلالهم، وكيف أن إحدى هؤلاء النساء استطاعت أن تلحقه بالعمل في استديو سينمائي، من الألف إلى الياء، وبعد أن تخرج من كلية التجارة عمل مساعدًا للمخرج، والتحق بمعهد الفنون المسرحية ثم قسم إخراج.

٢

دخل غرفة النـوم وفتح جهاز التلفزيون، يدوس على الريموت ويتنقـل مـن قناة إلى أخرى دون أن يرى شـيئًا، فقط صور تتابع، وعقـل غائـب، لا يسـتطيع أن يحـدد مـاذا يريد؟ وهـو راغب في التأكيد على شيء، هو في حالة سيولة، ترك نفسه للموج يضرب فيـه بقوة غير قادر على النظر في أي اتجاه يسـير، استسـلم إلى آخر مدى، ويفكر كيف يقاوم أو لا يقاوم على الإطلاق، ويظل هكـذا إلـى أن يكون الفنـاء؛ الفناء المدمر الـذي يجرف كل شيء أمامه، نفاية. كان متأكدًا أنه في تلك الحالة نفاية، علبة فارغة، لا شيء.

ترك التليفزيون مفتوحًا على نشرة الأخبار وخلع ملابسه وسار عاريًا في الشـقة، ثم دخل المطبخ، أشـعل النـور ثم فتح الثلاجة وأخرج الأكل؛ لحمة باردة، فواكه موز. أخذ يأكل بشراهة حتى أحس بالشـبع. دخل الحمام وفتح الدش تاركًا الماء ينساب على جسـده، خرج دون أن يرتدي ملابسـه. يقف وبيده زجاجة خمرة، يـرى ملامح وجهه في المرآة. لحيته طالت وشـعره الأبيض غطى على الأسـود، يلوم نفسـه على ترك جسمه يترهل بهذا الشكل، يتحسـس الشـحوم المتراكمة على كرشـه وأردافـه وفخذيه، شـرائح من الدهن لا يقلل من بشـاعتها سـوى طولـه العجيب. رن الهاتـف. كانت الفنانـة أصالة تحاول إقناعه بإخـراج واحدة من أغنياتها "فيديو كليب". أخذ يرحب بها. وكان سعيدًا باتصالها بـه، فقد كان يعشـق صوتهـا، ويجلس سـاعات ينصت لصوتها العذب الذي يسيطر على مشاعره ويخلق حالة ما.

طـرح عليهـا بعـض الاقتراحات بعد أن اسـتمع إلـى كلمات الأغنية، واتفقا معًا على أن ترسـل مدير أعمالها لكي يتفق معه على التفاصيل، أغلق السـماعة وتسـاءل: هل أنـا قادر فعلًا على إخراج تلك الأغنية. يقضي وقته يسير في الشوارع حاملًا الكاميرا على كتفه يصور المباني، الفضاء، البشر، كثيرًا من المشاهد دون أن يفكر في سـياق يحوي كل هـذا الركام. ورغم ذلك لا يستطيع أن يتوقف لعله يجد في ذلك نوعًا من اللذة، وكأنه يبحث عـن معنى ميتا فيزيقي، إله يسـكن وراء البيـوت القديمة، موج البحر، السماء، النجوم، يبحث بإصرار منذ الليلة التي رأى فيها جسد الشيخ مرميًا في قلب أحد شوارع المدينة مشوّهًا والرصاص مغروس في جسـده. ظل خلالها طوال الليل يرتعش وجسد الشيخ يتقلب بين ناظريه، يقلب في الكتاب، يقرأ بصوت هامس، يقرأ جهرًا، يصرخ لعل صورة الشيخ تختفي من ذاكرته أبدًا. أشقيتني.. أيها الشيخ حيًا وميتًا.

كان يعلم أنه واهم، وأن الذي يبحث عن معنى ميتا فيزيقي لا يمكن أن تكون الكاميرا هي الوسيط، هي الدليل، المرشد. ولكن هو يعلم أنه يحب هذا الفن، ويريد أن يقدم سينما مختلفة فقـط. وأن بحثـه عمّا وراء فقـط؛ لكي لا يبقى شـيء من حياته أو من تشـكيله كمخرج، وتذكـر في تلك اللحظة زوجته التي طلقهـا؛ لأنه لم يكن يطيـق وجودها أمامه على سـجادة الصلاة تقـرأ القـرآن، تنصـت إلى إذاعة القـرآن الكريم حتـى فاض به فسحب شرائط الأفلام التي مثلتها في حياتها الفنية، ثم أخذ يضع الشـريط في الفيديو وأخذ يتابع حتى أوقف الشريط على مشهد تكون فيه زوجته شبه عارية، حتى أن الرقيب رفض عرض الفيلم إلا بعد حذف سبعة مشاهد.

دخـل عليها وسـحبها من يدهـا، وأوقفها في مقابـل عريها،

وأشار إلى التلفزيون:

تقدري تمسحي المشاهد دي من وعي الناس؟

أنا مسحتها من زمان.

دا وهم.. أنتِ لازم تعرضي نفسك على طبيب.

أنا موهومة ومستمتعة بوهمي.

بس أنا مش مرغم أعيش مع وحدة مريضة.

خلاص نتفق على الطلاق بهدوء.

نتفق.

والأولاد؟!..

معايا وقت ما تعوز تشفهم.. موجودين.

خلاص.

لست نادمًا الآن، فالذي فرقنا ليس الدين، ولكن أنا الذي لم أعد أحتمل روحها.. كانت روح ثقيلة تكبس على نفسي حتى أنني كنت أحس داخلي أن هذه الروح روح قاتلة، روح ملحدة أكثر من كونها روحًا شفافة. حتى قبل أن تعتزل الفن لم أكن أحبها، ولكن كان يربط بيننا أشياء كثيرة جعلتني أحتمل روحها الشريرة التي تفعل عكس ما تبطن. قد تكون هي لا تعلم عن ذلك شيئًا. قد تكون وقد ينظر إليها آخر على كونها ملاكًا. وقد تكون روحي أنا التي بها سقم، مرض تشوه خراب روحي لا رآه أو أحس به. ولكن هي الآن كما أراها أنا. وقد أقول عكس ذلك بعد فترة بسيطة جدًا، وأعلم جيدًا أنني روح قلقة، متوترة. لا أستطيع أن أحتفظ بالأشياء الجميلة أبدًا إلا بعد أن تتهشم مني، ولا يبقى أي أمل في البدء من جديد؛ ولذلك تركتني الفتاة الوحيدة التي مست روحي وجعلتني سعيد، كانت

بيننا قرابة روحية رغم فارق السـن لذلك لم أفهم: لماذا تركتني وخرجت من البلكونة في الدور التاسـع إلى الشـارع. لا تستطيع أن تـدرك شـيئًا أو تحدد شـيئًا رغم أنني عندمـا عرفتها قلت في سـري: «إنها شـيء حلو في الحياة». «حاجة من عند ربنا». كانت جميلة وكأنها خارجة من الحكايات، كيانًا هشًـا يوحي بأنها زهـرة جميلة لا يمكن أن تحتمل شـرور المدينـة.. قابلتها في بار وسـط البلد.. تعرفت إلي ببسـاطة شـديدة، وظللت ليلتها أشرب حتى غرقت في عالم متوهم من الأصدقاء وزملاء المهنة الأشرار، أخذت أوجه إليهم الشتائم. أقف في ثقة العارف أخطب بلغة عربية سليمة اكتسبتها من حفظي للقرآن الكريم وتقويم الأب للساني طـوال فترة طفولتي وخبراتي التي اكتسـبتها من جلسـة أبي مع الفقهاء ومتعلمي القرية من المدرسين والوجهاء، تصيح...

بأنك لورد السينما المصرية، وأن الآخرين يقومون بسرقتك، ونسبة الأفكار إليهم.

إنا أول من ضرب مفتاحًا في هدم السينما الكلاسيكية.

خرجت تستند عليها، ثم دفعتها عنك وقلت لها:

أنا أعظم مخرج في هذا القرن التعيس.

وأخذت تتخبط، وهي خائفة ترتعش، والسيارات تمرق جوارك وتتفـادك حتى سـقطت علـى الأرض ونمت، وأخذت تشـخر في الشـارع، وهـي أحضرت تاكسـي وحملتك فيـه، وأوصلتك إلى البيت.

ماذا جرى. ماذا جرى.. أي كون، وأي حياة التي تحياها..

توقف عن النظر داخلك..

انتابته فورة حماسـة مؤقتة. يرى الفيلم أمامه، وما عليه سوى البدء في «الفعل» سحب قلمًا وأخذ يخطط على الورقة ثم سرعان

ما نسي، ويده تضغط بحدة دون وعي منه حتى تعبت يداه. توقف ثم نظر إلى الورقة. كانت الورقة بفعل الإعادة قد تحولت إلى خط غليظ ملأ الصفحة: «أكبر من كل هؤلاء» وتسأل: ما الذي أردته بهذه الكلمة؟ لم يجد معنى لهذه الكلمة في ذاكرته، فمزق الورقة إلى قطع صغيرة. أغلق الإضاءة في الشقة، ولم يترك إلا لمبة تسقط إضاءتها على لعبة كان قد اشتراها لابنه منذ فترة، وكل مرة كان ينسى أن يأخذها معه وهو ذاهب إلى رؤيته في منزل زوجته.. يتذكر فقط وهو يصعد السلم أو وهو يرى اللعب موجودة في الشقة، ساعتها كان يشعر بالتعاسة وأنه مقصر في حق الابن، ولكن ماذا يفعل؟ هو هكذا.

ضغط على زر اللعبة فأخذ يدور الطفل في المكان، حمل الكاميرا، وأخذ يتابع من جميع الزوايا حتى اصطدمت اللعبة بحافة السجادة فتوقفت عن الحركة، رغم أنه ما زال يصدر منها أزيز. ثبت الكاميرا فترة طويلة ثم أغلق الكاميرا ووضعها في الحقيبة.

أغلق الإضاءة في الشقة، وأغلق باب الشقة وراءه نازلًا درج سلم العمارة، يتحرك في الشارع وحالة من التحدي تنتابه مصممًا على الاستمرار، سيارات قليلة تمر، عساكر الأمن المركزي في كل مكان، أمن الدولة، المخابرات. أخذ يجري في الشارع وهو يعلم أنه ليس حرًا، ولكنه يعلم أنه سيتجاوز كل ذلك.

بعد انتحار صديقته كان يخرج بالسيارة ولا يعود إلا آخر الليل، وفي يوم كان يسير في الجبل وحده، وجد شجرة مانجو قد انقطع عنها الماء وردم جزعها بالرمل، فروعها عارية، وقد جفت الأوراق ما خلا ورقة في أعلى الشجرة.. ورقة تقاوم الريح والعطش، وحدها لماذا؟ هل هناك شيء يستحق المقاومة؟ ربما..

٣

ارتعش وتسلل إليه برد. فتح الراديو الصغير، كان نصر الدين طوبار يبتهل بصوته الضعيف المؤلم ينادي من حقه الرجاء والمرتجى: سبحانك اللّٰه الواحد، كل الوجود على وجودك شاهد. صوت نصر خفيف كغبار يخفي القبح المتناثر في المكان. عمارات وسط البلد مغروس فيها لمبات تظهرها وكأنها دمامل في جسد قبيح. كوبري أكتوبر جهنم والعساكر تقف في ملل. النيل راكد كميّت. سار في شارع رمسيس، ثم شارع شريف، ثم عبد الخالق ثروت، أخرج الكاميرا وبدأ تصوير العمارة الإسلامية والقبطية، يتجول في الحواري، يرصد الآثار، المساجد، الكنائس، القلاع، البيوت القديمة، المحلات التي تبيع السبح، يرصد الجمالية، الغورية، القلعة، العمائر الحديثة، علب الأسمنت الخانقة، شوارع وميادين وسط البلد، العتبة، وطلعت حرب، ميدان التحرير، العمائر الكلاسيكية ذات الطابع الباروكي، الإعلانات المزروعة على أسطح العمارات، منطقة مصر الجديدة الذي أسسها البلجيكي البارون إمبان، أوائل القرن الماضي على الطراز الإسلامي والمزين بالشرفات والزخارف العربية، كورنيش النيل وقد انتصبت الأبراج السكنية العملاقة كئيبة الهيئة وكأنها خوازيق. مَنْ يصنع من؟ هذا الخليط البشع، فاقد الهوية، هو الذي مسخنا، أم أن هذا غرسنا؟! تشوهنا انعكس على العمارة. صرخ في الشارع بعد أن ركن الكاميرا على الرصيف: كيف أعبر عن كل هذه الفوضى، فمال الإنسان؛ إنسان المدينة التي تصورت طوال عمري أنني أفهمه وضمير معبر

عـن أحلامـه. اتضح لي أننـي عرفت فقط القشـور. أنا عاجز عن معرفة شـيء في ذلك المكان، كلما فكرت أنني اكتشـفت خيطًا جوهريًا يقبض على جوهر الشـخوص من خلال الفعل أجد بعد ذلك أن الشـخص يمارس فعلًا آخر بقانون آخر مضاد للفعل الفائت. ومن يضمن لي أيهم الفعل الجوهري لأحد.

جلس في الحديقة التي تتوسط القبة يصور النجوم التي كانت تبهت والرماد الذي يكسي السماء. بدا الناس يخرجون من البيوت لصـلاة الفجر. مدّد رجليـه وهو يحس بالتعب مسـتندًا على جذع شجرة، وعينه تفقد قدرتها على التركيز حتى غفا.

تسـللت الكاميرا وانسـحبت من جواره في هدوء، واخترقت شوارع القاهرة، تقطع الفيافي والبحار، تترك المدن وتدخل في الصحاري، تعبِّر البحار وكلما تقدمت في الصحراء تقدم النهار حتى اشـتعل الكون بنار تـكاد تصهر الرمـال، الطيور اختفت أشـجار نخيل متناثرة في الصحاري، نبات عكرش منطوٍ، عدم فـراغ يتخلق في الكـون، توقفت الكاميرا أمام أفعى تقفُ على ذيلها في مواجهة الكاميرا، تدور على ذيلها راقصة في المكان العاري، والكاميرا تدور، توحد، تصور عينيها الزجاجية، رأسها الصغير، تلقط الغناء الذي يخرج من جوفها المسموم حتى اندفع مـن جوفها بخارٌ سـامٌّ تناثر على عين الكاميـرا. تركت الأفعى المكان سـائرة على ذيلهـا، وكأنها عمود مـن الفحم، راقصة باليه منتشـية. الكاميـرا تحركت حتى بدت الصحـراء أمامها ممتدة أحست خلالها بالخواء.

عادت الكاميرا ووقفت في مواجهة المخرج، ثبتت نفسها على حامل يرتفع وينخفض ويدور دورة كاملة تتيح لها تتبع أكبر ساحة من المكان. المكان غارق في سـكون خامل، لا يقطعه سـوى

موجات من صوت السيارات المسرعة، أوراق الأشجار تهتز في رقة خادعة، الأطفال صغيرة تنام على الرصيف، والبول ينساب تحتهم، تمثال إبراهيم باشا معتقل بين البنايات، مبان منيرة، القاهرة وشوارعها ومبانيها تمثل لوحة خادعة جميلة في الليل، القاهرة ليست مآذن وكنائس ومتاحف، وإتيليه وسيارات ومسارح. القاهرة مجارٍ ونخبة حاكمة فاسدة، ومعارضة وساسة يأكلون كالعاهرات بأثدائهن. حتى إن سلوكهم لم يعد مستهجنًا، بل مغرٍ بكل طبقات المجتمع، فالكل يسعى بإصرار والتزام صارم؛ لكي يشارك في شبكة الفساد؛ من أكبر مسؤول في الحكومة، أي أصغر عضو في مجلس شعبي محلي في قرية نائية. من أعضاء الحزب الوطني، إلى المعارضة، إلى جمعيات حقوق الإنسان، الكل، حتى الذين لم يكن لديهم رغبة في ممارسة الفساد فقد خربوا، لم يعد الولاء للمكان الذي تعيش فيه هو الولاء الأول، بل تعددت الولآت، وكل شخص له مبرر ما للعمالة.

انتبه على ضوء كشافات الكاميرا الفاجرة، وضع يده على عينيه، ثم أخذ يفتح عينه في بطء حتى ألف الضوء، وقف في مواجهة الكاميرا ينظر إليها في حدة:

أنا المخرج...! وتقمص دور ممثل مسرحي عتيد في لحظات تحد موجهًا كلامه للكاميرا.

أنتِ مجرد أداة.. أداة فقط ترصد لي ما أريد، حتى هذا الرصد، أدخل عليه بالمقص وأضعك أينما أريد.. وقتما أريد.. هذا عدل، هذا حقي، أريدك أن تكوني خادعة، لا ترصدي سوى أضواء النيون. فقط أريد ذلك كما ترى. أنا أخرج معك في الليل لا لكي أرصد الفساد، هذا ليس دوري.. هذا دور المقال. أنا أخرج بك في العتمة؛ لكي أقدم صورة بصرية جميلة.. وأعلم أنها خديعة، وأن

تحت هذه الصورة الممتعة وحل.. أنا مش حسن الإمام..

قام أغلق الإضاءة وأغلق الكاميرا ووضعها في الحقيبة، وقذف الحامل ووضع الحقيبة على كتفه وسار في الشارع. نظر إلى الساعة وجد أن الفجر قد قارب على الآذان، انحرف تجاه مسجد الحسين وركن الكاميرا جوار واحد من أعمدة الجامع. دخل الميضة وتوضأ ثم عاد واقترب من مكان الكاميرا، وجدها مكانها. قربها من صفوف المصلين، ووقف في الصف بعد أن نوى الإمام الصلاة. بدأ في قراءة الفاتحة، ثم قرأ في سورة مريم. كان للإمام صوت جميل، رائع. أدهشه أن يؤثر فيه بهذه الدرجة. قلبه يهتز فرحًا بهذا الصوت الجميل. حتى إنه ابتسم وبدأ يتوه ويقلب وجهه في معمار الجامع، وبدا له أن خياله يتوهج، ولا يعرف لماذا؟ هل الصوت الجميل يساعد على الخيال؟ لا يعرف، فقط يترآى الكون أمامه، وكأنه واقع ملموس. يكاد أن يلمس الشخوص والكائنات والعالم الذي يريد تصويره. ما الذي يجعله بهذه الشفافية، ويساعد في انفلات الحدس الداخلي بهذه القوى. محاولة التركيز في الصلاة، النظر إلى نقطة نهائية، صوتيات القرآن، الإيقاع. فقط أريد نقل قسوة هذه الإضاءة الفجة التي تربقني، المشكلة أن الكاميرا لا ترى ما أرى. الإمام يتوغل في الركعة الثانية في سورة البقرة، حتى سقطت على رأسي شيء صغير كفحل التوت. زلطة صغيرة نزعته عن كل الموجودين، بدأ جسدي ينمل ويهتز اهتزازات عنيفة وقوية، حتى إن قدمي لم تعد تحتمل ثقل جسدي، وتحت ثقل انتفاضات متسارعة وقوية حتى تكومت على نفسي وسط الجامع. وبدأ كل شيء ينكشف بوضوح أمامه.. يرى خلالها نفسه يجري حاملًا الكاميرا على كتفه، عائدًا في الطريق الموصل إلى قريته. يقطع الطريق كَسَهْمٍ، كيف لا يعرف، هو يعلم أنه منذور للفجيعة، وأنه يتبع

الدرامـا أينما تكون. نقطة ضوء تخترق الظلمة بحدة حتى وصل إلـى القرية. وقف على حدود القرية وسـط الصحـراء يتجول بين الكاميرا ، يرصد فيها الليل الممتد كالخيال، الترعة، الغاب، البحر، الثعالب، يرصد العناكب، الحشرات، يرصد الخسوف.

توغل داخل القرية يصور خلالها البيوت المبنية بالطوب النيئ بجـوار البيـوت بالخرسـانة.. تصـور الحديـد المغـروس في قلب البيـوت، محلات الخضار والفاكهـة، محلات الفراخ البيضاء، يدفـع الكاميرا محل البقالة، يخرج أحشـاء البقالة، والثلاجة، صناديق البيبسي السفن أب، الكوكاكولا، الجبنة، اللانشون، البسـطرمة، حلاوة الرشـيدي، المربات، الزيتـون، ركام علب السمن النباتي، زيت كرستال، عافية، يثبت الكاميرا على جثة الشيبسي، الكاراتيه، علب المناديل الورقية، البنك، يفتح الجرد ويحصي الفلوس داخلها، ثم ينثرها في أنحاء المحل، يتذكر في تلك اللحظة فيلم سوبر ماركت. أراد فقط أن يصور أفيش الفيلم، هل ما زال هو البقال الذي تركته، أم تغير مع البطالة، وانقرض البقال القديم، وتحول مع البطالة خريج الجامعة؟ أخذ يبحث عن البقال المختفي خلف الكم الهائل من السـلع، حتى وجده هناك جوار الميزان، في وسط البضاعة، البقال يضع يده على كرشه، وهو جالس على الكرسـي، راكنًا رأسـه على الكرسي، وهو مستغرق في النوم، وذبابة تنتقل ما بين أنفه وخده، ثم تتحرك على شـفته، ثم في فمه وتتحرك في سقف حلقه، ثم تقترب من الزور تنظر إلى الظلام فتتردد وتسير على حف الأسنان، ثم تخطو نحو الشفة، ينتبه على صوت:

فيه معسل سلوم يا حاج؟

يطبـق شـفته على الذبابـة، ثم يمسـحها بيده، فتسـقط جثة

هامدة.....

ينسحب المخرج سائرًا في اتجاه البحر.

الكاميرا من نوع ديجتال متطورة جدا ، اشتراها من اليابان في آخر زيارة ، ويلبس بنطلونًا أسودًا وقميصًا أبيض، الكون خاليًا إلا من الغربان، وقد تعب بعد أن قطع رحلة طويلة.

ركن الكاميرا جواره، وجلس على حشائش نابتة بجوار الجسر، لم يكن خائفًا ، فقط يضع يده على الكاميرا ، ويتحسسها في هدوء، ملمس سطحها مريح له.. أشعل سيجارة. حمل الكاميرا ، انحرف في طريق مهجور، ضيق، يحيطه أشجار الجزورين، وخلف صف الأشجار أشجار خوخ، برتقال، في تناسق جميل. فتح الكاميرا وسلطها على جذوع الأشجار. على التراب الناعم. ثم أخذ يدور بالكاميرا في الكون، وكأنه يبحث عن شيء، ثم ثبت الكاميرا على الطريق. الكون مظلم، فقط الطريق الترابي المضيء، حتى اقترب من مصنع الطوب الأحمر، تجاوز المصنع سائرًا في اتجاه البحر حتى وصل. توقف وسلط الكاميرا على خص يجلس فيه المراكبي، يضع براد الشاي على النار، وبجواره المعلم سليمان يرتدي جلبابًا من الكشمير ونظارة طبية، طويل، له شارب منمق، يبدو وسيمًا ، وبجواره مجموعة من الأشخاص يحيطون بشخص، يبدو المعلم سليمان هادئًا رغم وجهه البارد الميت. المراكبي ينفخ في النار، يرتدي قميصًا من الدمور مقطعًا ، وجسمه ظاهر، غير شاعر تمامًا بموج البحر، والآخرون يلتفون حول شاب عار إلا من لباس يغطي عورته، يبدو قويًا ، يلتفت في أنحاء المكان نظرات مفاجئة، نظرات بها مسًا خفيفًا من الجنون، ينظر نظرات نارية تجاه المعلم سليمان الذي قام وركز عينيه في عين الشاب:

دخلت بيتي في غيابي؟

يصمت.

ضربت على بيتي النار وروّعت أهلي؟

ومش نادم.

خرجت رصاصات من البندقية في قدم الشاب الذي صرخ، ثم كتم صرخته وارتسمت على ملامحه ألم يحاول أن يكبته. عرق يتجمع على جبهته، ورعشة خفيفة. دم يسيل في خيط من قدمه التي أصيبت، مكومة بركة ثخينة.

اتركني... كده كفاية.

لا مش كفاية.

ترك المعلم المكان، والشاب بدأ يفقد المقاومة، اختفى أحد الحاضرين، ثم أحضر صحيفة جاز وصبها فوق رأس الشاب الذي ينزف، وبدأ غير قادر على السيطرة على رعشة جسمه كله. يدور برأسه في شبه هول:

- خليهم يتركوني يا أبا عبد الوهاب.

أشعل الرجل السيجارة، وبسرعة قذف عود الكبريت على الشاب الذي اقتحم الواقفين صارخًا والرصاص يتوالى في ظهره. بدأ يبطئ في جريه، والنار تتوهج وتضيء الكون، يقاوم إلى أن وصل على جرف البحر، قفز بآخر رمق من محبته للحياة.. انطفأ ثم بدأ يغوص في البحر..

الكاميرا انسحبت وتركت الوجوه المحيطة بالشيخ سليمان، وسلطت إضاءتها على المراكبي الذي يصب الشاي في كبايات صغير ماركة ياسين، غير مبالٍ بما يدور حوله، ثم ردم النار بالتراب، ويوزع الشاي على الآخرين الذي لا يظهر منهم إلا وجوههم

فقط، ويداه الصغيرة المدكوكة، الممتلئة، وبعد أن انتهى من شرب الشاي هو الآخر غسل العدة، ولف سيجارة ثم أشعلها، وسار بجواره الآخرين. نزلوا من على الجرف، وقفوا على شاطئ البحر الممتد أمامهم هادئ يسير، وموج خفيف يتكسر على الشاطئ، رمى السيجارة في البحر، ثم سحب المجداف ونزل يجس البحر باحثًا عن الجثة حتى اصطدمت الدفة بالجثة التي لم تبتعد كثيرًا عن الشاطئ. غرس المجداف بقوة فوق الجثة، لكي لا تتحرك، ثم نزل البحر تاركًا المجداف على الشاطئ حتى قبض بيديه على الجثة، ثم أخذ يسحبها حتى أخرجها على الشاطئ، وبدأ يعصر الملابس، ويضغط على الجثة حتى يخرج الماء. غرس رجله في وحل الشاطئ ورفع الجثة على كتفه، وصعد بها من منزل قريب من الخص. ترك المعلم سليمان المكان وسار ومجموعة من الرجال وراء المراكبي حتى وصلوا إلى الكامينة. نادى أحد الرجال على الحرِّيق الذي خرج من الكامينة شبه مذهول، وخوف خفيف بدأ ينتابه من وجوه هؤلاء الرجال. نظر إلى الشيء الذي يحمله المراكبي وبدأ متذمرًا، ثم تفهم الأمر بعد أن علم أنها جثة، وأن الواجب عليه الآن أن يغرس هذه الجثة بين صفوف الطوب في الكامينة.

في لمحة تذكر الصبي الصغير، الذي كان يساعده في عملة في الكامينة.

كان واد زي القشاط، نشيط، ذكي، انهارت عليه رصة طوب وأخرجناه قطعًا، لفناه زي السيجارة اللف، مده المراكبي جوارب الباب، وعلم أن مهمته كانت قد انتهت، ترك المكان والحرِّيق يناديه:

جسمي مش خالص يا شيخ.

لـم يرد المراكبي، والحرِّيق ينظر إلـى الجثة مرة، ومرة إلى الرجـال الواقفين صامتين، دار في المكـان على هيئة قوس، ثم اقترب من الرجال:

هو مين؟

لم يرد أحد، اقترب من الجثة ورأى التشوهات والخروم، ورغم ذلك عرف من يكون، وكاد يصعق تمامًا:

يا خراب بيتي.. يعني مفيش غيري يقع الواقعة السودة دي.

إحنا مشيين، عايز حاجة؟

لا يا خويا.. أعوز إيه يعني؟!

دخل الفرن، وأخرج قطعة حشـيش، وأخـذ يقطعها ويلف في السيجارة، ثم يلف الثانية حتى انتهى من لف علبة كاملة.. أشعل الأولى وأخذ يشـرب دون أن ينظر إلـى الجثة، وذاكرته تتوهج، يرتعش.

(٤)

سقط المخرج على أرض المسجد المفروش بالسجاد، وهو مغمور بالعرق والخمول التام. فتح عينيه ونظر إلى الجمع الذي التفّ حوله، وسحب رأسه من حِجر الشيخ الذي كان ينظر إليه وهو يبتسم في وداعة، ويده تعبث بلحيته:

يا سلام شوف النور.. أنت روحك طاهرة.

شكرًا.. أرجو ما كنتش عملت قلق في المكان.

المكان يرحب بقلق المحب.. انوي.

ناوي.. ناوي يا مولانا.

اللّه هو الهادي.. «**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء**».

ادع لي يا مولانا. نظر الشيخ إلى السماء رافعًا يده.

سحب الكاميرا، وخرج من الجامع جلس على المقهى.. طلب من عامل المقهى أن يحضر له إفطارًا.. ثم شرب الشاي، وتذكر ساعتها صديقه أشرف حامد كاتب السيناريو والشاعر الغنائي.. صديقه القديم الذي شاركه حب المدينة، وكتب معه أنجح أفلامه.. أشار إلى التاكسي.. وطلب من السائق أن يذهب إلى مستشفى معهد ناصر.. بعد أن اشترى له عصائر وبسكويت وسجائر.. ودخل إلى المستشفى، كان في الدور الثالث.. ودخل عليه الغرفة الذي يوجد بها بعد أن أرشدته الممرضة.. دخل عليه مطرحه وجلس جواره.. وهو منكمش على نفسه، كئيبًا يتجاهل وهو ينهر الممرضة الذي لم تتركه يأكل ما يشتهي.. بدأ عنيفًا

وقاسـيًا مـع الممرضة التي كانت لا مبالية تلـم فوارغ الطعام ثم أعطته حقنة الأنسـولين، ولا تأبه لهجومـه المتواصل عليها حتى تركـت الفوارغ من يديها ، واتجهت في غضبـة مفاجئة وعنيفة.. أستاذ أشرف.. اخرس.. وبحلقت فيه بقوة.. صمت أشرف، ثم قام من على السرير، وسحب الكيس الذي يبول فيه...

أنا رايح الحمام والا ده ممنوع كمان..

ترك المكان، مناديًا المخرج الممرضة..

هو الأكل ده مش مصروف من المستشفى برضه؟

المستشفى حاتصرف جاتوه من «العبد» يا أستاذ!!.

ومين اللي بيجيب له الحاجات دي؟

بعض الممرضين عديمـي الضمير.. إحنا مش عارفين نضبط السكر من كمية الحلويات والحاجة الساقعة.. دا انتحاري.. واحد عايز يموت.. كل حاجة ضده يأكلها..

دخل وهم يتكلمون - ضعيف.. أنا ضعيف.. أعمل إيه..

بس لازم تحافظ...

أحافـظ.. علشـان إيـه.. يعنـي.. ثم أخـذ يضرب علـى التربيزة الصغيـرة بيـده بقوة: بقالي ثلاث شـهور وعارف أنـي.. أنا بأموت ولا مرة سألت..

قلت ما لك أنت صحتك حلوة يا أشـرف.. أنت نفسـيتك وحشة شوية.

نفسيتي... أنا عارف كلها أيام وتستلم الجثة.. أنا دلوقت ميت.

أخرج الشـنطة وسـحب منها زجاجة عصير وفتحها ودلقها في جوفـه.. ثم ابتسـم وقال: أنا مصمم أسـلم الجثـة، مفهاش حاجة نافعة..

ظـل المخرج وقتًا طويلًا يحاول الهرب مـن المكان وهو يرى المـوت يزحف من كل مكان وأشـرف يتشـبث بـه.. لا يريد أن أتحرك من المكان.. يحاصره.. وهو يعلم أنه يحبه، ولكن هو يعلم جيدًا أنني لا أحتمل هذا الحصار.. لا أحتمل وجودي في المستشفى لفترة طويلة.. وكان عليه في ذلك الوقت أن يهرب. أخرج الكاميرا من جرابها وطلب منه أن يقول شيئًا.. ابتسم الخبيث وعرف أنه يريد أن يهرب منه.. يعلم أنه سيقول إنه سيصور المستشفى والحشائش وحجرة العلميات والمشـرحة. ثم يهرب مني ويتركني أعيش في هذا المكان البشـع وحدي.. وهو يعلم أنه سـيموت وحده دون أن ينظر إلى أحد من أصدقائه قبل أن يموت..

وقف أمام الكاميرا ناظرًا إليها في شراسـة.. وأشار بأصابعه نحـو المخرج وقال: دايمًـا تتهمني بالابتزاز.. أنا مبتز ولكن مبتز خائب.. ابتزاز لكي أعيش وقتي، ولكني أنت مبتز كبير، أنت خنزير يا صديقي.. عشت على عرق الحريم.. ابتزيت ونصبت على العرب والفنانات والدولة، وعملت ثروة، وأصبحت الآن رجلًا وطنيًا تدافع عن فئات المجتمع الفقير من سطوة الرأسمالية المتوحشة.. مش دي نكتة.. ثم وضع أصابعه في معنى بذيء في وجه الكاميرا وانسحب.. وتمدد على السرير وسحب الغطاء ونام....

البعـض يرى فـي أفلامي أنهـا فارغة وكل ما يعـول عليه هو اسـتخدام الضوء، إن نجاحي فقط في اختيار مدير تصوير جيد اسـتطاع تحويل الفيلم إلى مجموعة لقطات فنية مروعة اسـتخدم خلالها الظلال القوية، الألوان بنعومتها وحدتها، اختيار الوقت، الأماكن، الكادرات والأسلوب البصري.

طبعًا في ذلك الوقت كنت أعترف بدور مدير التصوير. ولكن كنت أشـير إلى أنه يتبع رؤيتي في الأساس، وأنني كنت أتعمد

إخفـاء البعـد الدرامـي؛ لكي أحقـق منظر بصري جميـل.. هذا مفهومـي للعمل السـينمائي، السـينما صورة. كما أنني عاشـق للفن التشـكيلي، فان جوخ، رامبرانت، موريلياني، بيكاسو، مانتيـس، الكلمـة في الفن لها دور ثانـوي، أكره الجعجعة في الفن. صحيح خلق نوع من الرتابة، ولكن إن مخرج اللذة، وللصورة لذة تفوق كل اللذات، السـينما وحسيتها المبهرة ساعدتني على الدق على خطوط اللذة عند المرأة. جعلتني أشتهي المرأة بشكل قوي..

أعلم جيدًا أن أفلامي بها بعض الرتابة؛ لأنني في الأساس كنت غير مقتنع أساسًا بفكرة الصراع، وأعتبر أن هذا الصراع الذي يرتب مفتعلًا ومثيرًا للرثاء.. وأن من روج لهذه الفكرة فنانون قليلو الموهبة ومنتجون أغبياء، ورغم أنني ما زلت مؤمنًا بتلك الأفكار إلا أنني أريد أن أطعن هذه الصورة الجميلة بسـكين بارد، أريد قدرًا من التشـويه. قدرًا من العنف المحسوب بدقة.. أريد أن ترك المشـاهد بعد فترة من المشاهدة في حالة توتر، أريد أن أمارس عنفًـا جميلًا ضده، لا أحول هـذا الانفعال إلى فعل عاطفي يزول أثره بعد مشـهدة الفيلم.. أريد أن يخرج وهو يفكر: هل خُدعت، وما علاقة كل ذلك بحياتي.. أي حياة.

لو صديقي أشرف عرف ما يدور داخل ذهني لعرف أنني تغيرت بالفعل، وتجد هذا التغير واضحًا في أنني غير قادر فعلًا على فعل شـيء، وأنني كنت آمل فعلًا أن آخذه في حضني وأظل أبكي، أبكـي وداعه، أبكي وداع عالمي المسـتقر، الماضي، أبكي كل شيء؛ خوفًا لكل ما هو آت، وأن أعلم أنني ظللت فترة طويلة من عمري جالسًا على مقعد ثابت. الآن مطلوب مني أن أسير على حبل مشدود.. إن المستقر الأبدي أصبح في وضع خطر..

أنا لست لاعب أكروبات ولست مدربًا على أن أسير على الحبل يوميًّا. لا. أنا فقط وجدت نفسي فجأة على الحبل وكأنني في كابوس. وأعلم أن تحتي ليست حشائش أو نهر. لا. تحتي هاوية، أنا في يوم القيامة أسير على الصراط ومجلل بالخزي والخطايا.. وأعلم أن السقوط في هذه الحالة مبرر ومتوقع. ورغم ذلك تجتهد لكي لا تسقط، تفعل أقصى ما يمكن فعله لكي لا تسقط فقط حمل الكاميرا.. (وتركته يتكلم لكي تصنع الكاميرا ما أود فعله معه)... وفعلًا مات بعدها بأسبوع، مات أشرف، مات بعد أن قطع خراطيم الجلوكوز التي تدفع الغذاء داخل شرايينه، وجرى في ممرات المستشفى إلى السلم، إلى الشارع، والممرضون يجرون وراءه حتى سقط على الحشائش النابتة جوار الرصيف المقابل للنيل وعندما اقترب منه الممرض لم يكن يوجد نبض، فقط جسم بارد وفم مفتوح.

أعود مرة أخرى إلى اللذة.. اللذة فعلٌ متخيل، فعل سلبي؛ ولذاك تظل العادة السرية أجمل اللذات على الإطلاق وأكثرها دفئًا. وعمومًا أنا أريد أن أضع نصًا قديمًا وتعريفًا للذة ابن مسكوية تحت مجهر الكاميرا.

اللذة

إن اللذة تنقسم إلى قسمين: أحدهما لذة انفعالية والأخرى لذة فعلية. فأما اللذة الانفعالية فهي شبيهة بلذة الإناث واللذة الفاعلة تشبه لذة الذكور؛ ولذلك صارت اللذة الانفعالية هي التي تشاركنا فيها الحيوانات التي ليست بناطقة (أي) عاقة؛ ولذلك هي مقترنة بالشهوات ومحبة الانتقام وهي انفعالات النفسين البهيمتين. وأما اللذة الأخرى فهي الفعالة وهي التي يختص بها الحيوان الناطق ولأنها غير هيولونية ولا منفعلة انفعالاً؛ لأنها صارت لذة تامة وتلك ناقصة وهذه ذاتية وتلك عرضة واع بالذاتية والعرضية. إن اللذات الحسية المقترنة بالشهوات تزولُ سريعًا وتنقضي وشيكًا بل تنقلب لذاتها بل تصير آلامًا كثيرة أو مكروهة، بشعة متقيحة، وهذه أضداد اللذة ومقابلاتها وأما اللذة الذاتية فإنها لا تصير في وقت آخر غير لذة ولا تنتقل عن حالاتها بل هي ثابتة أبدًا، وإذا كانت كذلك فقد صحّ حكمنا وصحّ أن السعيد تكون ذاتية لا عرضية وعقلية لا حسية وفعلية ولا واهية، لا بهيمية.

تحررت هذه الليلة من الكاميرا وقررت أن أمارس نزواتي هذه الليلة دون أن التفت لحالة الزهد التي انتابتني في الفترة الأخيرة.. خرجت بالسيارة.. دخلت بارًا وطلبت عدة كاسات حتى نمل جسمي قليلًا وبدوت أتخفف من كثير من المشاكل والأمراض المستوطنة داخلي.. خرجت موهومًا بكوني سعيدًا؛ لذلك قررت أن أذهب لحفلة كانت قد دعتني إليها ممثلة شابة.. تلاحقها الأضواء.. ولها روح خفيفة لا يمكن إلا أن تنحاز لها.. وكنت أعلم أن تلك الزهرة ستنطفئ ببطء ولا يبقى منها غير

مساحيق وبلادة ووقاحة. ولكن علينا الآن أن نرقص حول الزهرة.. قبل أن تذبل وتسقط..

دخلت، كنت أعلم أنني أستطيع أن أصنع جوًا مبهجًا في المكان.. عن طريق النكت والغناء المرتجل والحكي الذي فرضت عليه القاهرة ممارسته. فأنا قضيت وقتًا طويلًا بلا عمل حقيقي ولا يمكن أن أمشي بدون بشر.. ولذلك كان عليّ أن أكون مسامرًا لذيذًا حتى يأتي الناس إليّ كما يجب أن أنصت لهم أيضًا..

ظللت في الحفلة حتى وقت متأخر وكنت بدأت أسكر.. ورغم ذلك كنت أعي ما أقول، أضبط كلامي جيدًا.. وعندما أتت صاحبة الحفلة وجلست جواري وصبّت لي كأسًا ورحبت بي نظرت إلى عينها وعلمت أن هذا المكان مكانها الحقيقي وأنها من الممكن أن تكون فنانة عالمية.. وجهًا صبوحًا معبرًا وكاذبًا. كاذبًا إلى أقصى درجة ولكن سيفتش المخرجون عنها حين الإغراء في مساحة جسدها المهول وابتسامتها المغرية... مع أنني أراها في الأدوار الإنسانية العالية القيمة وأن مجرد أن يلتفت إليها أحد من تلك الناحية سيحولها إلى أسطورة.. ولكن حولنا شريط السينما إلى مجموعة من المشاهد المبتذلة الوقحة دون أي عناية حقيقة.. خرجت من الحفلة ولم أعلم ما قلت لها.. وسرت في الشارع ناسيًا أنني أتيت بسيارة فسرت في الشوارع الخالية من البشر، فقط أضواء تصب لعنتها علي حتى تصورت أو شعرت فعلًا أن أحدًا يسير ورائي.. لم التفت.. وتقدمت في السير ببطء وثقة مفتقدة، ولكن الصوت بدأ يقترب مني.. يقترب مني فعلًا - فيه إيه؟.. من الذي يسير ورائي؟

حاولت أن أطمئن نفسي وأنني مرتاب بطبيعتي وأني مصاب

بهوس ووساوس قهرية.. وأن أحد ما كان يعمل في مكان.. وعاد متأخـرًا.. فيـه إيه؟... بدت دقائق قلبي تزيد وعرق يغمر جسـمي، انحرفـت فجأة في حـارة مظلمة.. اندفعت ولكـن صوت الأقدام يتبعني وضوء كشافات يغمرني.. ارتعبت فعلًا وأخذت أجري من شارع لشارع وخلفي صوت لهاث.. وبين ضلوعي قلب ينتفض.. ولم أجـر من زمـان، وقد تعبت والكشـافات تتبعني حتى اصطدمت بنهاية الحارة المسـدودة أمامي، أي سـلطة، أي شيطان يتبعني.. أدرت ظهري نحو الكشـافات وبدوت في مواجهة الضوء أغمض عينـي وأنـا أعلـم أن الرصـاص سـينهمر علـيّ من الكشـافات المضبوطـة باتجاهي.. حتى انطفأت عين من عيون الكشـافات ثـم الآخر.. فتحت عيني، كادت الكاميـرا تقبض علي وأنا في أشد الحالات ضعفًا وقهرًا ورعبًا.

سارة

عين مذعورة تكنس الساحة التي أمام المحكمة. متصدعة، تحاول جاهدة أن تتحكم في مشاعرها حتى إنها تحولت إلى لوح من الخشب. لو فرت دمعة منها، لو أحد قال لها: ما لك؟ لن تقاوم، ستسقط على الأرض وتمزق ملابسها وتجري في الشارع. فقط لا تريد أحد أن يمسها. اقترب منها المخرج وأشار بكفه في وجهها. ابتسمت، يرتدي بنطلونًا أسودًا وفلنة برتقالي ويلبس نظارة سوداء، ولحيته الكثة تطغى عليه وساقه ورجولته. فرحت ونزلت جواره درج السلم، يلبس ساعة رولكس، مشعر، رأيت فيه نوعًا غريبًا، انطفأ الوهج الذي يميزه، واختفى الفرح الذي يصنعه صناعة حتى لو لم يكن يشعر تمامًا بأي فرح؛ ولذلك هو دائمًا محبوب، يخفي دائمًا انفعاله ومشاعره ويعيش كما يريد الشخص الذي يجلس معه، وكذلك هو محبوب من الآخرين حتى هؤلاء الذين لا يحبهم. كانت أحيانًا تعزم بعض أصدقائها؛ لكي يتعرفوا به في لحظة يزيل كل الحواجز، ويصبح صديقًا. أحبطت، فقد كانت تريد أن يخرجها من الحالة التي تعيشها، ولكنه خذلها.

فتح الباب الخلفي للسيارة، وأشار إليها بأن تركب. جلس على مقود السيارة. نظر إلى المرأة مفتعلًا ابتسامة:

أنا تحت أمرك.

«خلاص، يله يا سواق»، مقلدة ماري منيب.

اندفع بالسيارة في شوارع القاهرة. حاول خلالها أن يفتح موضوعًا، ولكنه فشل، ولم يجد مبررًا أن يتكلم. يعلم أنه لو

تكلم سيقول كلامًا تافهًا ، وأن حزنها وألمها أكبر من طاقته ، من رغبته في إزاحة ما تحس به :

أنا اديتهم عنوانك.

ومن غير ما تعطي هم عارفين كل حاجة.

أنت مش خايف.

الحقيقة خايف.

يا جبان. عمومًا الصفحة اتقفلت خلاص.

أخذت تطل بعينها المحاصرة بالنقاب إلى الشوارع، البيوت القديمة، الأسفلت المكسر، بائعي الجرائد، المساجد.

تنظر بعينين تلمعان بفرح ما :

تسمعي موسيقى؟

لا.. أنا جعانة.. مصطفى إسماعيل.

مصطفى إسماعيل.

ماشي.

أخذ يبحث في درج السيارة حتى أخرج شريط مصطفى إسماعيل

إيش عرفك أني ممكن يكون معايا مصطفى إسماعيل

أنا عارفة أنك بتحب مصطفى إسماعيل

كنا نطلع الصومعة أنا وأبوكِ ومجموعة من الأصدقاء، ونظل طوال الليل، حشيش وصوت مصطفى إسماعيل

ناوية على إيه.

خلاص الصفحة اتقفلت، أنهكوني تمامًا ، عايزة أرتاح.

أنتِ يئستي.. معاكِ حق.

شـوف كل واحد ليه قدرات معينة. وأنا بُدِّدت كل قدراتي، قتلـوا زوجي، مزقوه بالرصاص، خرمـوا جثة أبي، حتى إن مخه تطايـر علـى جدران العمـارات، أنا ممكن أوريـك أجزاء من مخ أبي.. عايز.

لا، أنتِ قاسية عليّه قوي، أنا راجل ضعيف.

أفسـدوا أولادي وعذبوني عذابًا لا يحتمله بشر، يله.. اللي راح راح.

حـاول أن يلتفـت ولكنـه تراجع... ماذا سـيقول؟ دخل شـارع الكورنيش إلى القصر العيني، المعادي، يضغط على الدواسة، تندفع السـيارة, وكلما زادت سرعة السـيارة أحست بالاستقرار والراحة حتى توقف جوار حديقة صغيرة على شاطئ النيل... خرجت وأخـذت تمسـح المكان بعيوبهـا، نظرت إلى امتـداد البحر إلى الشجر، ثم جلست على الحشيش النابت في الحديقة:

- أنت بتسوق كويس.

- تعليم الشيخ... كل حياتي تعليم الشيخ.

- اللّه يرحمه كان بيحبك.

- عرفنـي كل حاجة، الحريم، الحشـيش، المدينة... عارفه أنـه هـو إل عرفنـي بعجوز كانت فتحـة خير، عرفتنـي بالطبقة العليـا، والحقيقة أنها صرفت عليه كثير ولولاها معرفش كان حيكون طريقي إيه؟

- عشان كده أفلامك رصد لأحلام وأشواق تلك الطبقة.

- أنـا حبتها، الطبقة دي فهمتهـا، وكمان دا مظلومة. عارفة ليه؟

- ليه؟

- لأن محدش حبها.. كله شايف الظاهر, السطح, لكن زيح الطبقة الرقيقة دي.. حتلاقي أشياء مهولة، عذاب وأشواق، وأفراح، وأحزان.

- كل الحياة كده... عند كل الناس.

- أ ه صحيح... لكن

كان يريد أن يرى وجهها.. كيف فعلت به الأسوار.. العلب الأسمنتية، هجير الشمس، الرطوبة التي تخنق الروح، البرودة التي تبخها الجدران، السقف الأصم، الشباك الصغير المعقود بأسياخ الحديد الصلبة، ملامح الآخرين، المستقبل، يريد أن يرى كل ذلك.

- تعبتي.

- بالعكس كانت أقل الفترات قسوة.. القسوة الحقيقية كانت في المطاردات في الشقق من مكان إلى آخر، ومن بلد إلى آخر، أن تسير والرصاص يتبعك أينما تسير، ألا تنام.. أن يكون زوجك جوارك ولا يستطيع أن يمارس الجنس معك، كان ضعيفًا عكس أبي الذي كان حاسمًا.. لا تراجع كعادته.

- طبعًا أنتِ حتقولي دايمًا كنت أركب معه السيارة لازم يقفل الأمبير، وله مقولة شهيرة.. ما دام عملين العربية دي سرعتها ١٨٠ يبقى العربية تسير ١٨٠.

- خلصت.. في إيه؟ حاجة غريبة.

- خايف ليه؟

قامت.. سرت تجاه السيارة، وركبنا واتجهنا إلى وسط البلد إلى ميدان التحرير، إلى باب اللوق.. ركنت السيارة ودخلنا مطعم سمك.. حييت العمال وصعدت إلى الدور الثاني، جلست وطلبت لها

ولـي أكلًا ، كانت تأكل ببطء حتى انتهت، طلبنا مياه غازية ، وخرجنـا مـن المحل إلى السـيارة اللي اندفعت تمـرق في الاتجاه المرسـوم لها حتى وصلت إلى العمارة ، أدخلت السـيارة الجراج ، ثم دخلت السوبر ماركت ، اشتريت معجون أسنان ورز ومكرونة وأشياء كثيرة ، ثم اشتريت لها ملابس وقمصانًا للنوم وروبًا ، ثم صعـدا العمارة بالأسانسـير ودخلا الشـقة.. اعتبرني مش موجود خالص..

غناء الحرِّيق

ترك سارة وسحب الكاميرا وذهب بها إلى الصنايعي في مصنع طوب المعلم سليمان، الحرّيق؛ لكي يقترب منه وهو يسحب الشوكة وهو يصعد السلم الطيني إلى أن انتهى إلى سطح الفرن، هواء رقيق يكاد يكون باردًا يسري في الكون. صمت لا يقطعه سوى نعيق البوم، الذي يربكه ويقطع سرحاته. ردد الحرِّيق هامسًا ولكن بصوت مسموع.

«أنا لا أتأثر من صوت البوم، أو أتشاءم من تحليقه فوق رأسي..».

قطعة من السحب المتجمدة فوق رأسه. يدور برأسه يتابع تحليق البوم. «صديقي الطيب الذي يسهر فوق رأسي ينبهني، فأسير حذرًا على الحائط الذي يقسم الفرن.. تحتي نار تكاد تحرق العالم كله، وليس العبد الضعيف، لو أنني سهيت أو نسيت في جزء من الثانية، سأكون مسحوقًا من الرماد، يخرج مع قوالب الطوب؛ ولذلك أنا ممتن لهذا الطائر الذي لا أراه جيدًا، فقط قطعة صغيرة مغمورة في الليل تنقر ي رأسي؛ تذكرني أنني على شفا الموت، أنا الذي أعتبر نفسي ذو قلب ميت...».

الصبي الذي يساعدني في رص الكامينة انهار به جزء من الرصة.. «عوية كالكلب».

والعمال الذين يشتغلون بالمصنع.. جروا على مصدر الصوت، وأنا أغلقت البرابخ الموصلة للمازوت إلى الطوب، وأخذ العمال يقذفون بالطوب خارج المكان حتى ظهرت جثة الصبي.. سحبوا الذراع، الفخذ، النصف الأعلى بوجه مشوه. فرد الجلباب وأخذ يرص عليه الجثة، ثم أخذ يطوي الجلباب وربط الجلباب بورق

الموز الجاف بعد أن بلله في الماء.. المعلم سليمان كان قد حضر. اقترب أحد العمال من الجثة، وحاول أن يريها للمعلم سليمان الذي رفض.. خلاص، خلاص.. البقاء لله.

طلب من السائق أن يأتي بالسيارة الملاكي ويقترب بها من المكان. حمل الصبي ووضعه في السيارة. «ركبنا نحن الشغيلة، وسرنا وراء سيارة المعلم، حتى وصلنا إلى بد الولد المجاورة لبلدنا». مال المعلم سليمان نحو بيت العمدة ونزل من السيارة وحكى هو ما جرى.. ركب العمدة جوار المعلم سليمان حتى وصلا بيت الصبي.. كان أهل الصبي أمام البيت، وقابلونا بالصويت، وأبُ الصبي رفض بإصرار ألف جنيه مساعدة للأسرة. «شخر الحرِّيق في الخلاء فتردد الصوت، ثم أخذ يعيد الشخرة فيتردد الصدى.. فيعيد الشخر حتى إنه لم يعد قادرًا على إيقافه.. أخذ يجري على الحائط الذي يفصل البواكي بعضها عن بعض.. يجري والجحيم يمور تحته، وشحير صدره يزداد تزيق وشحيره يزداد حتى ارتمى على الحائط وهو يلهث.. يرقد على بطنه حاضنًا الحائط، ناظرًا إلى عربات الكارو.. أشباحًا متناثرة في الساحة المعدة لضرب الطوب النيئ قبل دخوله الفرن...».

يريد الآن أن يقوم يفحر لحدًا.. يعلم أن الأرض صلبة، وأنه لم يعمل بالفأس من زمان.

«ليس أول ولا آخر.. منذ أن خرج من المدرسة وعمله في الحقول، ثم تبّاع على سيارة نقل، عربجي، حتى وصل إلى هذا المكان، سيعود الآن لكي يمسك الفأس ويفحر حتى ينتهي، ستكون فانلته قد ابتلت تمامًا، يخلعها ويعصرها ويظل جالسًا بكرشه وجسده اللحيم.. وعيونه المطموسة، يحمل الجثة على كتفه حتى يصل إلى الفاسقية المليئة بالماء، ويترك الجثة في

قلب الماء.. يسندها لكي تعوم، يخلع الملابس القليلة الباقية ويغسل جسمه وينظفه، يغسل الجروح «تتألم الآن» أنا أتألم أنا الآخر. يفتح فمه بقوة، ويدخل فيها الماء، يغسل الشعر الباقي في رأسه..

كان جميلًا ويتعايق بشعره ولحيته، في هيئة محارب من عصور قديمة، يحارب من أجل قضية عادلة.. لكن للأسف كان ابن قحبة لم يترك شيئًا قبيحًا إلا فعله..

الحرِّيق يسحب الجثة بعد أن غسلها ووضعها في القبر ووارى الجثة بالتراب، واستطاع أن يجلب شجرة فيكس من مشتل على النهر.. وغرسها في موضع الجثة، وعمل حولها حوضًا، وأخذ يجلب الماء ويملأ في الحوض. بعد أن صلى عليه صلاة الجنازة، جلس وبدأ في القراءة عليه، وهو الحافظ لكتاب اللّه، هو ذو الصوت الجميل، نجم الاحتفال في المدرسة بعيد الأم، ولو استمر في تلاوة القرآن لكن من كبار المقرئين في الإذاعة. يقرأ وصوته يتطاير في الكون فيجذب الفلاحين الذين يروون في ساعات متأخرة أو صائدي السمك وغيرهم يلتفون حوله مسحورين بصوته الساحر.

سحب الشوكة وغرسها في العين؛ لكي يسلك الجلخ، لكي يمر المازوت ويتخلل الطوب. الطوب في حالة سيولة، اللهب يندفع من العين إلى وجهه، عينيه تقابل الصهد الخارج من العين بسيل الدموع. بصره يكف عن الرؤية شيئًا فشيئًا، ولم تصلح المراهم والقطرات والوصفات الشعبية في إزاحة الغيمة من على عينيه حتى توقف عن تعاطي كل هذه الأدوية..

«يله.. في كل فترة أحس أن جزءًا من جسمي يعطب.. مرة لنقرس، ويمنع عنه الدكتور اللحمة.. هذا هو المستحيل.. لو

امتنعت عن الأكل سأموت. هذا الكرش بما يمتلئ؟ بالعفش.. أنا أريد أن أموت وبفمي اللحم، الذي لا أشبع منه أبدًا.. وصدري هو الآخر قد خرب.. كثوب مهترئ.. بطل، صدري بطل.. احتمل أربعين عامًا سجائر، والدخان الخارج من المخروب ده.. وصهد.. كفاية.. يحتمل؛ لأنه عرف جيدًا، أحتاج لأن يستمر.. لو توقف سيموت الأولاد من الجوع. كسبت كثيرًا جدًا. لو وفرت لكنت امتلك عمارات.. ولكنه مسرف حتى إنه استلف حق الدخان آخر الأسبوع. «عاد الزمان مرة أخرى لسمعت كلام زوجتي وأنجبت طفلين فقط.. ولكن ماذا يمكن أن أفعل؟ أنا اليتيم المحب للأولاد. لم أكن أعرف أن صحتي الجبارة من الممكن أن يضيعها هذا المصنع، عملت أشياء كثيرة، أصبحت الآن عبرة.. كنت أستطيع أن أدخل في الحائط لأخرج من الحائط الآخر. الآن أنا مسالم. حتى الولد الذي شتمني حاولت في البداية أن أقنع نفسي أنني أنا المخطئ.. وبعد وقت ثار الدم في عروقي.. وأحسست أن كرامتي قد أهدرت.. انتفضت وأخذت أجري وراء الشاب حتى لهثت وروحي تكاد تزهق، حتى وصلت إليه ووقفت في مواجهته وأنا ألهث كالكلب.. أنت بتقول إيه؟ أنت شتمتني يا ابن القحبة.. اقترب الشاب مني.. فرميت نفسي عليه ولكمته، فاحتضنني، أنا أحاول التخلص منه.. وهو يردد.. خلاص تعال.. تعال بس.. أن غلطان.. قلت: أنت ما تعرفنيش.. اسأل أباك عني.. أنا اللي يكلمني أدمر دين أمه.. يسحب فيه في رفق حتى أجلسني على جانب الطريق، والعرق يتساقط على حاجبي ويسقط في الأرض.. ألهث.. أخرجت علبة السجائر وعيني تتجمع فيها الدموع.. جلس الشاب جواري، ثم مال عليّ وقبّل رأسي في مودة.. بكيت بحرقة.. النار التهمت أعضائي قطعة قطعة. حتى المال الذي كنت أظن أنه لن ينتهي لم يعد يكفي شيئًا في الفترة الأخيرة.. أولاد الزنا..

خلوا الأسعار نار.. يا ناس أنا طلقت زوجتي الأولى؛ لأنها بخيلة.. أترك في يدها الفلوس وأذهبت إلى المصنع.. أظل أسبوعًا هناك وآتى أسبوعًا فأجد الفلوس في سيالتها كما هي.

- بتاكل تراب بنت البلغة طوال الأسبوع.

كنت أريد أن أشعر أن هذه الفلوس التي أدفع فيها روحي لها من يقدرها ، من يمتن لوجود هذه الفلوس.

انتهى من تسليك العيون، والنار توهجت، فنزل من على سطح الفرن وجلس جوار الجثة. مطلوب الآن أن يحمل الجثة ويزيل بالشوكة مكانًا آمنًا ويغرس الجثة في واحدة من الرصات ويضع الجثة؛ لكي تتحول إلى رماد ، لم يكن قادرًا على فعل ذلك.. كل شيء بثمنه.. يعلم ذلك.. قلبه لم يكن يطاوعه.. لماذا.. ثم إنها ليست المرة الأولى.

- عندك ضمير يعني

أبدأ كل الحكاية أنني شخص مجنون.. آه.. أظل أعمل بانضباط طوال الوقت، وفي لحظة أهدم كل ذلك.. وكما كانت تقول أمي: «تظل تحرث طوال النهار زي البغل، وآخر النهار تبلط إل أنت عملته، وكأنك ما حرثت شيئًا».

تظل تهتم بأخواتك البنات، وفي لحظة تبوظ كل حاجة..

- يا ابني أنت كاره دائمًا أن تستمتع بثمار عملك.

طلعت روحي وأنا أعمل مساعدًا للحرِّيق، وعندما تمكنت من عملي ووثق في صاحب المصنع وأصبحت الريس تقبض على مبلغ يكفي لملء ثلاثة عشر طفلًا وطفلة.. من سيوفر لك الخبر لأولادك بعد أن خرب جسمك.

أزاح صوت أمه بيديه.

آه يا أمي أنت تعلمين أنه عيش مغموس بالدم، ومال يسحب به من روحي جزءًا جزءًا، ورغم ذلك لا أريد أن أرى التعاسة على وجوه أولادي... أنـا غير قادر على تحمل ذلـك. ثم لماذا؟ ومن هذا الذي تريد أن تدمر كل شـيء في سـبيله.. مجرد جثة قطعة من اللحم المشـوه.. الرصاص مغروس في جسـمه الذي تحـول إلى غربال.. إيه؟ فووق.. فوق بقة.. جثة لا تفرق لتفرق عن أي جثة سوى أن هذه الجثة تشبهني الخالق الناطق تشبهك. وجهه هو وجهي.. عينه هي عيني.. جسمه هو جسمي.. شعره.. رأسه الضخم.

- يا رب.. لماذا لا يموت كل الناس ميتة طبيعية؟

حتى لو كنت أنت.. إيه يعنى.. أنت من الممكن أن تسقط في أي لحظة، ألا تعلم ذلك؟.. أنت كثيرًا ما تخدع نفسك.. تذكر أنك مصاب بمرض السكر، ورغم ذلك تظل تأكل بحجة أنك هفتان، وتحشر في بطنك حتى أغمي عليك مرات كثيرة.. اعقل بقة..

كل شـيء وارد.. هل سيكون وجوده أهم من وجودك.. اعتبر أنك تقوم شخصيًا بحمل ذاتك ووضع نفسك في قلب الحرِّيق.. كل الذل في الكامينة يزحف نحوك لكي يسحقك.. ضع نفسك في قلب الحرِّيق.. أنت تعمل بروفة عادية؛ لكي تتحول إلى رماد.. ماذا في ذلك. الآن اسـتعد.. احمل جثتك، ووسع بين القوالب واغمرها بالنار لكي تتطهر دوس على تلك الدنيا القحبة دوس على الخمر دوس على الباقية الباقية من جسدك.. لا.. لا أريد أن استمتع بآخر لحظة من حياتي بالأكل والخمر والنساء أنا عاشق للنسوان كل جزء فيها السيقان العيون الأرداف، الشعر حتى وأنا عنين. مجرد أن أراهم.. متع الدنيا حتى آخر لحظة لي في الكون..

لا تظن أن لك به صله رحم، بل هو عدوك، وهذا الوجه الراقد أمامك ذليل. هذا الجسد المشوه القميء.. ظل طوال عمره يثيرك

ويثير داخلك رعب.. تاجٌ من العار يجللك.. لا يمكن نسيانه.. لا يمكن التغاضي عنه. فقط تحاول نسيانه؛ لأنك ضعيف.. فجأة يصطدم يحاول الاقتراب منك، يمد حبلًا من المودة.. تهرب منه، تعود إلى البيت، تنظر إلى وجه أمك.. لا ينبئك بشيء.. من فرط البلاهة وحسه ساكن سكون الموت.. ولكن الشبه قاتل.. لا يترك لي أي ذرة من الشك.. أقلب الأفكار داخلي، لماذا لا يكن والدي هو الذي لقح أمه.. لأنه فقير، وماذا في ذلك؟. للأغنياء نزواتهم، الحياة علمته أن سلوك البشر لا يمكن التنبؤ به. حتى لو كان.. هو مات، ماذا أريد الآن.. جثة أمامي.. أخذ يقلب في الجثة التي تشوهت، عيناه مطفية.. خروم سوداء متناثرة في جسمه، لماذا لم يتركوه يعوم في البحر؟

قدري الأسود.. ربنا ترك كل الناس وأراد أن يمنحني أنا.. يا ربي أنا ضعيف ومسالم، ورغم ذلك يدك الإلهية تتبعني أينما أسير. حرق زرع ومات أعز ما لدى، وتلاحقني الأوبئة.. تقتص مني، وكأني ارتكبت كل الجرائم ضد ناسك.. نظر إلى السماء.. القمر بدأ ضئيلًا تحاصره السحب والظلام. حرِّيق يا رب.. فقط حرّيق.. يريد أن يأكل، يشرب، يفسو ويموت.. لست طاغية ولا شريرًا، ورغم ذلك أنا مذنب، أركع وأصلي لك.. أنا بشر.. ألم تقل: أنا غفور رحيم، ذنبي أعرفه.. أنا لا أقتل.. فقط أطهر الجسد بدفنه وسط قوالب الطوب، وأشعل النار حتى يتحول إلى رماد. وماذا في ذلك. ما يفيد الشاة سلخها بعد ذبحها.. أنا أحفظ القرآن، وأعلم أن إكرام الميت دفنه.. الروح تصعد إلى السماء، الروح الطيبة شريعة الهندوس تحرق جثة المتوفى، أعتبرهم هندوسًا هنودًا.. هندي ومات وأنا تعبت كثيرًا في حياتي ولي الحق في الراحة.. أنا أموت في سلام، أعتقل الأرواح التي تهاجمني كل ليلة، يتحولون إلى أسلحة لكي يدمروني....

الأصـوات تأتي من قلب قامينة الطـوب، قمت مفزوعًا، أنظر حولـي في زعر، جثث تخـرج من قلب القمينـة، كتلة من اللهب تندفـع نحـوي.. جريت، مرعوبًا، بعزم ما بـي صارخًا: الحقوني، الحقوني، أجري في قلب الساحة، أتخبط في الطوب المرصوص، أدوس على الطوب النيئ، أجري، أجري والساحة تحولت إلى نهار، وخيالي يجري ورائي ومعي وخلفي حتى اصطدمت به، توقفت من على الجسـر في حقل موز، أجري والأشباح تكاد تلمس كعبي حتى سـقط فـي هوة عميقة، صرخت وأنا أهـوي في قاع عميق، وأنـا متيقـن من أننـي هالك لا محـال حتى اصطدمـت بمجموعة من الخشـب فلم يصيبني شـيء.. سـكنت.. اعتبرت نفسي ميتًا، سكوني وأنا موجود في هذا المكان البشع أكد لي أنني مت، وأن الأرواح الشريرة خطفت روحي، وأنا أسقط. أحسست براحة، فالموت سهل ومريح؛ لكي أرتاح من هذا العذاب المرير.. يجب أن أهتدي.. يجب أن أخرج من الظلمة.. تجولت في المكان.. تحسست بيدي حتى تحققت من أن المكان الذي أنا فيه هو عبارة عن نفق أسطواني معتم، لا أعرف كيف سقط فيه أو كيف الخروج من هذا المكان. أخذت أسـير في اتجـاه الهواء وأنا متيقن أنه يصل متيقـن أنـه يصل إلـى مكان ما. سـرت حتى وجـدت زلطًا تحت قدمي، وانتهت الأرض السبخة وتحولت إلى أرض رملية. وهيئ لي أن موج البحر يضرب في جدار النفق.. أخذت أجري. أجري حتى بدا لي ضوء شـعلة.. فرحت وعلمت أنني نجوت. أجري حتى تعبت ولم أعد قادرًا على المشي.. ورغم ذلك الشعلة بعيدة.. جلست مستندًا على حائط الجدار حتى غفوت وقمت على صوت، فتحت عيني، بدت الشـعلة قريبة مني.. اسـتغربت.. وجلست أكشف المكان. كان عبـارة عن قـاع بحر مهجـور، والحائط جدار مـن الطين، ارتفاعه عظيم. بدأت أخاف وتيقنت أنني حي، وتسـاءلت: كيف

لم يردني؟ جلست مؤتنسًا به حتى أعرف ما يريدون فأمنهم وأجد حيلة تخرجني من هذا الفخ الذي وقعت فيه إلى أن قام رجل وسحب الشعلة، وصعد فيما يشبه المسرح، ووضع الشعلة عليه. وجلس تحتها، وسحب شيئًا أشبه بآلة موسيقية لم أستطع تحديدها. وأخذ يعزف والصوت يخرج حزينًا قهرني، وكأنني ناقص قهرًا. إن الحزين المطارد بالأشباح والدنيا القحبة التي جعلتني أتعيش من دم الخلق. أنا الغلبان التعس، جبروت هذه الأصوات التي تصدر من الآلة الموسيقية.. من أين تخرج هذه القوة كل هذا الضعف، الأنين في الكون حتى كدت أسقط من الإعياء المعذب.. أنا اليتيم قارئ القرآن في المآتم والأخمسة وعدة ياسين. أنا الحرِّيق الذي عندما يخرج من البيت تنتظر زوجته خيرًا سيئًا.. وكل مرة أدخل أجد وجهها بلون الكوركم.

على كرسي مُطَعم بالذهب واليواقيت كان شبه ميت، ولولا الآيات التي تخرج من فمه لقلت: إنه ميت، ترك الكرسي الذي يجلس عليه، وبدت الحيوية تدب في جسده النحيف كزوال، وصعد على خشبة المسرح، ونزل العجوز الآخر.

أشار أولاً إلى رأسه....

هنا يوجد ضجيج.. من يخرج كرمة النحل التي تنهش في خلايا مخي.

- تقوم على بركه من دماء..

في بداية حياتي التحقت بالشيخ الطيب، وكان يرى فيّ الفقيه القادم، القادر على النظر في كتاب الله، ولكن بعد أن حفظت القرآن وقرأت علوم الشريعة.. تنبهت على قاعدة شرعية تقول: «إن الله يغير بالسلطان أكثر ما يغير بالقران».. مرّت عليّ كثيرًا جدًا، ولكن هذه الكلمة زلزلتني في ذلك الوقت بالذات.

واعتقدت ساعتها أن هذه الكلمة أثرت فيّ فقط؛ لأن كتاب اللّه الـذي أحفظه في صدري «مهدد» كانت الخلافة في ذلك الوقت قـد دبَّ فيهمـا الضعف، وتكالبوا على الشـهوات، ونسـوا هذا القرآن لم يأت لأهل مكه فقط، بل للعالم، وأن انحسار الإسلام في شـعاب مكة يعني فناء هذا الديـن. هذا الدين الذي عُذِّب به الكثيـرون؛ لكي يمتد ويتجاوز هذه الصحاري الجرداء والوهاد ,هـذه الشـمس المتعامدة علينا تذكرنا ببلال وسـمية، وحمزة، عمـر، علـي، أبي بكر، والقـراء الذين رووا الحديقـة بدمائهم. ماذا يمكن أن أفعل. سحبت السيف من جرابه.. أنا حامل القرآن في صدري، وقاتل حمامة من حمائم الكعبة.

- نعم، وقاتل حمامة من حمائم الكعبة، وهادم البيت.

ولكـن الفتنة وأنـا أرى الأمم تنهش فينـا، والقلاقل تدب في الأمصال، والناس ينكدون المكان، وكان عليّ أن أسـكت.. كنـت كلمـا ذهبـت لدرء فتنة أو هبط شـغب، سـحبت كتاب اللّه، وقرأت حتى يؤذن الفجر وأنا أرتعش، وأعلم أن هذا السيف الراقد جواري كشيء مهمل سيقبض كثيرًا من النفوس.. ولكن لن أكون منافقًا لكي أقول: إن المصحف يتبلل من الدموع التي تسـقط عليه، أريد أن يخرج من هذا المصحف أشـجار، أمطار وعصافير وكناري تسبح اللّه

- ظلمت، عذبت، نسفت بيوت اللّه.

- يضرب بيت اللّه؛ لإعلام الكلمة.

- أنت لا تفهم كلام اللّه.. ويل للرعية من سلطان جائر مسلح بكلام اللّه..

- لو مرة واحدة تعاطفت لسقطت رايات كثيرة.

- أنت لست بكرًا أو عُمرًا.

ارتج وزعق بعنف، وأشار بالسبابة الوسطى.. «أنا وهم هكذا» ارتجف أن الجالس في ركن أنصت لهذا الشيخ الفان.. ارتجفت من العنف، وبدأ الرجل كرمح وأكبرته.. أكبرت العزة التي فيه..

- تستأصل في خسة القاتل.

جلس على حافة المسرح، ووضع رأسه بين يديه فترة طويلة حتى تصورت أنه قبر وقال: الفرق بيني وبينكم أنني اخترت. وأعلم أنني سأعاقب على خيارتي، سواء كان هذا الاختيار صحًا أو خطأ.. ولكن أنا رأيت هكذا تكون الأمور.. قد أكون مخطئًا، ولكن انتهت الرحلة.. ماذا يمكن أن أفعل الآن.

- أدعو الله بالمغفرة.

- دعوة.

وجاءني الرد سريعًا.. دعوني أحكي الحكايات..

قبل لقاء العدو.. جلست بعد أن تطهرت كالعادة، وفتحت كتاب الله، وأخذت أقرأ حتى بدأ الخيط الأسود ينسل.. كان عليّ أن أصلي، ولكني غفوت ورأيت نفسي في المعركة أندفع بقوة وعناد، أضرب بوحشية عجوز قاتل محب للدماء.. حتى قطع عليّ الطريق فارس، وعلمت أن الله قد غفر لي «ذهبت إليه، ذهبت إلى قدري، واستلمت سيفه الذي كشط رأسي تطاير إلى مسافة بعيدة جدًا، وفرحت وأنا أرى رأسي تتدحرج في الرمال الحارقة، وجسدي بدأ بهراء وتأكد لدي أنني مت، وبدأت المعركة، وطارت رأسي في الهواء كما رأيت، وجسدي يعاندني ويتقافز في الصحراء وراء رأسي الذي سقط عليها المطر الشحيح حتى التصقت بالجسد مرة أخرى، وينزل على الأرض ملاك، ويعيد إليّ الروح.. قمت بكيت، وعلمت أنني مكتوب عليّ الشقاء والعذاب، وأن عليّ دين يجب أن أدفعه وصرخ...

أنا القابض على الفكرة، أنا جعفر، علي، مسلم، العباس، الحلاج، بكر، الزبير، الحسن، الحسين، وكل هذا السلسال الطيب.

قام شاب وقال: القتل حق؟

حق

لماذا جئت؟

مطارد من الولي

وكيف لم تحميك الفكرة؟

أنا وهو نأخذ من نبع واحد، ولكنه الأقوى.. لسنا سواسية كأسنان المشط.

وجلس على الكرسي واستغرق في عالمه والآخرون يحملونه على محفة، ويدخلون به في قلب الحائط، وأنا من شدة خوفي نظراتي تلاشت حتى إنني لم أر الراقصة إلا بعد فترة طويلة من رقصها، وهي تهتز بعنف على وقع الموسيقى الوحشي.. وتساءلت: من أين تخرج كل هذه الموسيقى الوحشية.. وكيف تدمر الحب هكذا.. أريد أن أنسى كل هذا.. سحبت عصا من جواري كانت لرجل يشرب خمرة، ظهره تجاهي.. وتقدمت مخترمًا المعازيم الذين تكاثروا بصورة أربكتني وجعلتني أقف على مشط رجلي؛ لكي أرى ورك الراقصة المطل. أين الفرقة الموسيقية؟.. صعدت خشبة المسرح..

سمع هوووس.. وأخرجت الورق الأخضر.. الحبايب، ذئاب الجبل، أبو دومة، أهل أسيوط، أرجل ناس الفلاحين، أهلي، الحاج صابر عواد، الحاج محمد طارق، أبو رشا. أطوح العصا في الهواء، وأرم على الراقصة الورق الأخضر، أغرس الفلوس ما بين ثدييها، أترك لجسدي الانسجام مع الموسيقى، والمطرب

الـذي خرج لا أعـرف من أين خرج بصوت مبحـوح، ضعيف، في هوس المحب.

معادش حاجة تهمني ولا ريح عفية تهزني.

لا عنيد ولا مغرور ولا أحب أكون مجبور.

* * *

جوايا صوت مجروح يصـرخ ولا المذبـوح.

ويقولـي يا إنسـان إوعاك تخاف على الروح.

نزلـت مـن علـى المسـرح، والراقصة تتبعنـي، وأنا فـي غاية الانتشاء، وتصورت حياتي التي عشتها قبضة ريح، وأن الإنسان من غير ورث في هذه الدنيا الشرموطة ضائع لا محال، حرِّيق يا أخي أحة.. عمر مع زوجة شـبه الكلبة، وأسـوار مصنع لصهر الطوب الأحمر، وأنا الواقف كل يوم شاعرًا باليتم والضياع.. أنا الواقف في نفق بين صحبة لا أعرفها، ولكن أشعر حيالهم بالأمان، ماذا لـو خيرت بين البيت والأمان والأولاد والحياة الشـريفة الكريمة الذي حاولت أن أبنيه طوال عمري؟ ماذا أختار، وأن أكون صبيًا عَلْمَـة، ترقـص في الموالد والأفـراح. أنا الذي بـلا عائلة، يتيم، سـاقط، مكبل بخوف دائم من الآخريـن والمكان، خائف من الأحجار والترعة والحلفة، خائف من الأرض التي تحت قدمي من أن يكون كثبات ويسـحبني إلى هاوية، تكتم على نفسي حتى أمـوت، أو تتبعني الرياح وتضرب فيّ حتى تدمرني وتتركني في العراء نهبًا للكلاب والحشرات.

خـراء، أرمي وراء ظهرك كل هذا الهراء.. يبقى وقتًا طويلًا، يجب أن أعيشه كما أريد واد برمجي عترة، عينه في قلب رأسه، يجيب الفلوس من هبوب الريح.

تحررت وبدأت أرقص وسط الصحبة، التف الناس حولي، أنا

الذي كنت خائفًا منهم، حتى اقتربت من الراقصة، وسحبت مني العصا ووضعتها على قلبي وأوقفتني بحزم

شرفت المكان.

أنا الذي تشرفت بالمعرفة.. معرفة الناس الكويسين كنوز.

للمكان شروط.

على رقبتي.

السر.

في بير.

والخائن

عليه ربنا.

ضحكت في مودة، وسحبت العصا من بيننا، واقتربت مني حتى أن لهب نفسها كاد أن يخدرني.. كانت جميلة حتى أنني لم أسمع من كلامها شيئًا حتى قالت بحزم: الخائن له ده.

تراجعت إلى الوراء بعد أن رأيت في يديها مطواة بسوستة، خرجت على القلب مباشرة..

يابا.

الأمان، خد راحتك.

جلست في حلقة وركنت زجاجات الخمر، وسحبت الجوزة، وشربت حتى باتت الدنيا خراء، وأنني ميت وفي الجنة..

وعندما أحسست بالجوع قدم لي الطعام، لحوم، أسماك، رز، حلويات، أخذت آكل وأحشي في بطني حتى كادت أن تتفزر، وكتمت نفسي، ووجدت صعوبة في إخراج النفس، فسحبت مرة أخرى زجاجة خمر حتى أهضم الأكل الذي آكلته والمغني يغنى.:

ولا موج يخطي لحد شطي.

يترع جذوره يهدني.

يجري مهما يكون ما أنا صريح اللوم.

والدنيا لو بركان الصعب فيها يهون.

تخففت من العوائق، ونسيت الأموات والأحياء، وبدأت مع المطرب، ثم أخذت للحاضرين.. إنني أحب الجنس، ولكني عاجز، كما اقتربت من زوجة أجد روحها عتمة، روح حلوفة، وأنا عارف أني لو غيرت الكلبة سيخرج الفحل الذي بداخلي.. وأنني غير قادر على الزواج مرة أخرى، وكلما فكرت في الحرام ظهرت صورة أولادي أمامي، وأنا أعلم أنه كله سلف ودين.. تركت الصبية -التي كانت تحضر لي الطعام- الآخرين واقتربت مني، ثم نزعت ملاءة سوداء، وبدت في ملاءة أخرى شفافة، تظهر ثديها وجسمها ووركها، ابتسمت لها وأنا فاتح فاهي، سحبت رجلي عرتني ومسكت عضوي وأخذت تدلكه وتضعه على ثديها حتى دب فيه حرارة.. ثم أخذت تمص فيه استحلابًا حتى انتصب، لم أعد قادرًا، قمت وخلعت جلبابي، ورميتها على ظهرها وركبت فوقها في قوة وجبروت، أقبل فيها وأنا في غاية النشوة والعذاب، ألم أتوق إليه من مدة طويلة، حتى غمرني ضوء قوي، أخرجني من حالتي فتحت عيني، وجدتني راكدًا على بطني على الأرض، عارٍ، وجهي مصفر بالتراب وبفمي تراب، قمت وجدت زوجتي أمامي، وأنا خائف من وجودها المفاجئ، تنبح كالكلبة مسعورة ورذاذها يتناثر على وجهي، ضربت يدها الممسكة بيدي، وابتعدت عنها بمسافة بعيدة، وأخرجت من جيبي الفلوس ومددت لها يدي.

- خذي، خذي الفلوس، واكتبي بلاغ، أنا عايزك تخربي بيته ابن ديك الكلب.

- صرخت في وجهي.. أنا مش عايزة أكتب بلاغ، أنا عايزة

واحد يحميني

بدأت أفقد السيطرة على انفعالاتي، وأخذت أتوجه بالكلام نحو الجمهور الذي بدا متجاوبًا معي، ثم نظرت إلى زوجتي لم أجدها، التفت إلى الجمهور؛ ليفسر لي الأمر، لم أجد أحدًا.

فقط فراغ وأنا وحدي في كهف أسطواني مغمور بالظلام التام، شعرت ساعتها بالتعاسة، وأنني ضعيف وهش بشكل مزر.

أخذت أنهار على نفسي في المكان حتى تكومت وغطيت وجهي بيدي لعلي أصل إلى حل، أو أرمم ذاتي المهترأة حد الجنون.

مياه رمادية

يقـول بيكاسـو: «المهم ليـس هو العثـور على شـيء، بل هو البحـث» هـذه العبارة لا أعـرف كيف وجدتها؟ كيـف تراءت.. إحساسـي ويقيني يقول: إنها كانت تبحـث عني في ذلك الوقت بالـذات. وإلا لماذا الآن؟ وأنـا في قمة الحيرة عن جدوى البحث، جدوى إرهاق الذات بتحليلات ومحاولة خلق سـياق لشـيء مبهم، عائـم. أعتقد أن هـذه العبارة انبثقت لي؛ لأن روحـي تطلبها لأنها كان يجب أن تأتي. عندما رأتني العجوز التي كنت أعاشرها في بداية حياتي، قالت لي بعد ذلك: إنها كانت واثقة أنني سأرتبط معهـا بعلاقـة. هكذا تكون الأمور، فأنت يمر بك آلاف البشـر وفجأة تقول: هو ده.. قالت أيضًا: لو أحببت أحدًا بصدق سيحبك الآخر.. أكيد حتى لو كان في السماء وأنت في الأرض.. المهم أن روحك تستوعب الآخر.. هذه السيدة الطيب التي ابتززتها وكنت خسيسًـا معهـا، عندما أتذكرهـا أقول: إنني ضحيـة بجوهرة، ولكـن عذري أنني كنت صغيرًا، ولم أكن أرى فيها إلا مخزن فلوس وشرب، لم أكن أنصت لها. هي هكذا تتكلم وأنا أبحلق فيها، وأنا أشرب خمرًا دون أي انتباه لها، ثم عندما تنتهي تقبلني ثم تشـكرني؛ لكوني أنصت إليها. فعلًا قال بيكاسـو: «المهم هـو البحث»، أن تكون صيادًا مجردًا، أن تقذف بالشـبكة في الهواء، حتى لو أخرجت الشبكة حذاء قديمًا، كلبًا ميتًا، فرع شجر، فراخًا، لا يهم.

لم أر سـارة وكأنها تتجنبني.. بعدمـا رأت عيني تتبع تفاصيل جسمها.. لم أعتذر بأني كنت فعلًا لا أراها في تلك اللحظة وهي

التـي نبهتني.. هي التي أشـارت لي.. ترددت فـي الدق على الباب.. صـوت المقرئ، ولم أسـتطع أن أحدد صوت البنـا أو مصطفى، قـد أكون مشـتت، ولكـن الحيـاة علمتنـي أن أتجاهل أشـياء كثيـرة، قد تكون واضحـة للعيان، وكأنهـا لا تعنيني. دخلت عليهـا تركتني وسـارت تجاه البلكونة.. جلسـت على السـرير.. إيه رأيك في زيارة لهدى عيسى؟ ممثلة كبيرة، كانت أول بطلة لأفلامي.. لم ترد، كانت تنظر إلى السماء تبحث في الفضاء عن طيور، سحائب، صفاء.

- لو سمعت محمد رفعت لقلت الرجل ده محب.

- أكيد..

- ليه أكيد؟ قالتها بحدة.

- يعني رجل طيب وصوته حلو.

- أنـا كرهـت الكلمـة دي.. دا رجل محب لكل شـيء حتى الموت.

تقتـرب مني وتكرر الكلمة في قوة، وبعينها دموع. سـاعتها علمت أنها لم تهزم؛ رغم قسوة ما تعرضت له من مطاردة وسجون وضـرب وصقيع وخوف. ووقر في ذهنـي أنني لم أنضج بعد، وأن حياتي قضيتها أسير على شاطئ البحر، وأنني لم أمتحن بالنزول إلـى البحـر، وأننـي لم أتعرض لشـيء ذي بـال، رغـم أني أحس بالتعاسة إلا أنني لم أتعرض لتجربة تقهرني، وتكشف لي جوهر هذه الحياة..

وأردت أن أعـرف مـن أين هذا الفيض من المحبة؟ التي تحمله داخلهـا يحميها من التجارب البشـعة التـي تعرضت لها، وكيف انفض عني ركام اليأس الذي أغوص فيه، وترميم ذاتي المهترئة والقفز على الحالة التي أنا فيها، رغم كل الحيل التي أستخدمها

فـي بناء روحي. مـن إحجامي عن شـرب الخمر إلى بناء مشـروع سـينمائي، أصور المشـاهد وكأنني أبني بيتي، وكلما صورت مشـهدًا أرضى عنه في اللحظة إلا فيه أشـعر أنني أضع طوبة في البناء، وعندما أنتهي من مجموعة مشاهد وأنظر إليها في مجملها أشعر أن البناء تهدم، وتناثرت القوالب أشتاتًا لا يربطها أي شيء. قلت لها: كيف؟ قالت: إنها لم تفعل شيئًا. لقد كان أبي يعاملني كولد بعد أن رُزقَ ست بنات، فسماني محمدًا، وأخذ يؤهلني على أنني الصبي الذي لم يرزق به.. فكنت أعمل معه في الورشة وأبذل مجهـودًا مضاعفًا؛ لكـي أظهر كما يتمنـى أن يراني، وداخلي كان قويًا. أراد الأب صناعة ابن يشـبهه؛ ولذلك أنت تتصور أنني تعبت لأني امرأة.. ابتسمت، ونظرت إليها في خبث:

- دا انتي امرأة ونص.

ابتسمت وبان غمزتين زادوها فتنة وروعة....

اللـي تغيـب كان المرحـوم المختـار عبد اللّه زوجـي.. كان حمشًـا وسـلوكه سلوك شـاعر.. أنت عارف في عز الأزمة وإحنا في انتظار رصاصات الرحمة.. أجده ينظر إلى عيني، وتزيد رعشة يديه ويبتسم ويقول:

- أنا عايز أبص في عينيكي على طول.

هو اللي أيقظ فيّه مشـاعر الأنثـى، الطرية، الجميلة، وكان يسرح لي شعري ويقول:

- أنـا عايـز أموت قبلك؛ عشـان أنتظر حوريتي فـي الجنة، لو كتبت لي.

هذه النفس الشفافة أحس أنه منذور لتجديد الإسلام من اسمه المختـار إلى الأحـلام التي يرى فيها ما لا يراه آخرون. كان يقرأ القـرآن ويجاهد في سـبيل معرفة الأمة دينهـا الصحيح، وتأليف

الكتـاب «الجامـع» الذي أصبح هو الآخر مطـاردًا بعد قتله على الأسفلت في شوارع القاهرة.

لم أسـتطع أن أتكلم، ارتبكت، خرس داخلي، عطلني عن الحوار، كان الموت بالنسـبة لي نوع من الإقصاء، فزع له. ليس لأنني الخلود أبدًا، ولكن لأن الموت اسـتخدم ضدي كسلاح، دمرنـي.. عندمـا قامت من أحببتهـا بإخلاص بتركـي، وفتحت البلكونـة واندفعت في الهـواء في قفزة ماهرة، ارتطمت خلالها بالأرض، وتحول جسـدها الممزق إلـى صليب من الحديد الثقيل أحمله حول رقبتي أينما أسير دون أن أجرؤ على التخلص من هذا الصليـب الذي أعاق كل حياتي، وأصاب حياتي العطل. وظهرت لي النساء في جوهرها الحقيقي بعيدًا عن الظاهر بشعات بشعات استغلتني أسوأ استغلال، رغم أنني ظللت طوال عمري أعتقد أنني بلا ضمير مع النساء، وكنت أنظر إليهن باعتبارهم وظيفة، دور يقومون به وقت الحاجة. أشبعت رغبتي حتى وصلت إلى يقين بأن متعة النساء وهم، فقط وهم، صنعه أشياء كثيرة، ولذلك كانت لـدي رغبـة للتحرر من النسـاء في هذا الوقت. تسـقط على امرأة سكن شقتي. ماذا أفعل؟ النساء يتساقطن علي، وطلبت مني أن أخرج معها لزيارة أمها..

- ما أعرفش أمشي وحدي.

خرجـت معهـا، وذهبت إلى أمها التي تزوجـت بعد قتل زوجها من سـباك في شـارع الجيـش. ركنت السـيارة، ودخلنـا وجدنا زوجها جالسًـا بالشـورت والفلنة.. أخذ يرحب بسـارة وبي، كان مـن الممكـن أن يكون مبجـلًا ومهابًا لولا أنه يقـف بالملابس الداخلية التي تجعله مثيرًا للسخرة.. أخذ يرحب بنا في آلية:

- يا مرحبا، دا احنا زارنا النبي.. دا الليلة بيضا الليلة.. قولوا،

أفرش الأرض رم.. نورتم شارع الجيش.

وعندما سمعت أم سارة صوتنا أتت، وقبل أن تسلم علينا.. نظرت إلى زوجها نظرات نارية، يملؤها الحقد والقسوة.

- قالع كده ليه.. مفيش حياء، أصلك غبي.

ثم سحبت كسرونة وقذفت بها الزوج الذي جرى والتصق بالحائط، والعرق يغمره، وينظر إلينا في بلاهة.. ثم استدارت إلى ابنتها وأخذتها بالحضن، وأنا في غاية الحرج.. المكان ضيق، ولا أعرف في أي مكان أجلس، حتى نظراتي لا أعرف في أي مكان ألصقها.. أبعدها عن الزوج المهان الذي يرتعش، أنظر إلى الزوجة التي تلبس جلبابًا طويلًا أسود ملتصقًا بجسمها الفاره الطول.. كانت جميلة وجهها أبيض، وعينيها واسعة ومكحولة، وحاجبها خط رفيع أسود، يزيدهم حسنًا وفتنة، وتصورتها بطلة في فيلم لي. جلست على الأرض، وأنا جلست على الكنبة في مواجهتها، وسارة جوارها، ظهر ساقها ممتلئاً وأبيض، أدارت رقبتها نحو الزوج: ادخل البس حاجة يا غبي.

دخل وارتدى بنطلونًا وقميصًا مهترئًا من الحواف، والقميص كروهات به نقط بوية، جلس جواري، ضخم، يظهر شعر صدره كثيفًا، وكرشه يكاد يمزق القميص.. أخذ يطبطب على وركي حتى أنني عرقت.

- نورت.

- شكرًا.

ثم أخرج ورقة بفرة، ثم أخرج علبة كانت ممتلئة بالبانجو.. أخذ يلف في هدوء، حتى لف عدة سجائر، ثم ناولني واحدة.

- ماشي.

- أنا عارف بتوع السيما ، أنا عارفهم

كانت الأم والابنة يتكلمان في هدوء، وأنا حاولت قدر الإمكان أن لا أنصت لكلامهم. قامت الأم وفتحت الثلاجة وفتحت زجاجة بيبسي لي وناولت ابنتها واحدة.

- قال: واحدة تطري على قلبي يا روحي.

- روحي!! آدي اللي أنت شاطر فيه.. يا روحي يا رجل يا خول.

- كلامك حلو.. عليّ الطلاق أحسن من أغاني أم كلثوم، ومحمد عبد المطلب.

ضحكت، فضحكت سارة وضحكت الأم هي الأخرى.

- اتلهي يا خايب.

فتح جهاز الريكورد وأخذ يرقص على الموسيقى، وهو يمص السيجارة في نهم وكأنه سكران، يدفع الدخان في الهواء، ويرقص على إيقاع الموسيقى.. يتطوح ويدور، خلعت الكوفية التي أرتديها وحزمته، ثم أخرج المطواة وأخذ يتلاعب بها، ثم شدني لأقوم أرقص معه.. فاستجبت له وأخذت أرقص معه، وهو أخرج المطواة يتلاعب بها، ثم يصوبها نحوي تصويبات محسوبة، ثم يتراجع يدور، يوجه المطواة نحو زوجته، ثم يغرسها في الحائط أو في المنضدة، وهي تفر منه، وبدت ثقتها في نفسها تهتز، تنظر إليه في قوة.. ثم اقتربت من الريكوردر وأغلقته. ظل فترة طويلة ساكنًا حتى عادت روحه إليه، فانهبد على الأرض.

- كسرتي بخاطري.. ساعة الحظ لا تعوض..

وذهبت أم سارة وسارة إلى المطبخ؛ لكي يقوما بإعداد الأكل، وجلست مستندًا على الحائط ناظرًا إلى الصور المعلقة، وأنا أتذكر الشيخ وكيف كانت حياته.

طـوال عمره على حد الســكين، وكأنــه يريد أن يعيش عدة حيوات مرة واحدة، يريد أن يسـلب مـن الآخرين حياتهم؛ ولذلك دائمًا ما كنت أنظر إلى ملامح الشـيخ.. وأحس أن هذه الملامح لن أراها لمدة طويلة، ليس لأنني أنا الذي سـأموت.. أبدًا، كنت أعلم أنه سيموت.. لا.. لم يكن ليموت ميتة طبيعية أبدًا.. هو منذور للقتل. حتى قبل أن ينضم للجماعات الإسلامية السياسية. أنا قلت: إن الشيخ سيموت قبلي. أنا قلت: إن ما يقعد على المراود غير شر البقـر، يبـدو فعلًا أنني شـر البقر.. وأنني منذور للـذة، للتخمة، للترهل، للموت، بكميات هائلة من الدهون التي ستكبس على نفسي حتى أفرفر...

انتبهـت علـى صوت السـباك الـذي بدا يرحب بـي بعد صمت طويل.. قلت:

- يا أخي كنت هاتعور المدام.

- «همس» يا أنا أموت.. يا هيه يا أستاذ.

- «انزعجت» لا رجل ليه؟

- ما أعرفش.. أنا ساعات أبقي قدامها زي الفار قدام القطة، أول ما أشفها أسقط، وهي تضع رجلها على رقبتي.

- مـا تضحكـش يا جميـل.. وأنا كمان سـاعات بتجيلي قوة ممكن أفعصها زي حشرة.. يعني دا قانون.. لازم حد يموت.. لكن مين اللي حيضرب ضربته.. مين اللي حايقدر.

- النهارده كنت قادر؟

- أبدًا.

- ليه؟

- إرادتي مش في إيدي.. أرجو أفهم.. «وبدا وكأنه على وشك

البكاء..».

أنا طول عمري كده.. قبل ما أتعلم السباكة مع المعلم شعبان.. كنت بأعمل شيالاً في سوق روض الفرج، أيام الشباب.. كنت أنزل عربية الطماطم، الخيار، البرتقال، وحدي في ساعة. العربيات البوتفر، كل معلم كان بيشتغل معاه أربع أو خمسة عمال، وأنا وحدي أشتغل مع المعلم، وكنت أساعد في محلات أخرى، كانوا المعلمين مسميني محمد البغل - تعالى يا بغل، روح يا بغل - عنكفتي، ثم أخذ يضرب على كفيه، ورقبته تدور طاحونة والمعلم ناداني بعد أن انتهيت من الأكل.. رحت رأيت يا أستاذ سيدة وكأنها خارجة من حلم أو أنها منزلة من السماء هذا الوقت بدون أن تسير على الأرض أبدًا، طول بعرض، حلاوة أنا ما أقدرش أفتّح فيها. كانت الأقفاص مرصوصة، وقد طلب مني المعلم أن أحملها على العربية.. حملت الأقفاص وأنا في غاية الهمة، من كل أنواع الخضار والفاكهة.. والعربية سارت وأنا راكب على الأقفاص فوق، وهي تركب مع السائق، وأخذت أحلم وأنا أعلم أنه حلم مستحيل، وأنا أضم هذا الجسد العريان إلي، وأمص في شفتيها الحمراء، أعصر جسمها بين يدي.. غفوت حتى توقفت السيارة. قمت وجدت نفسي وسط الصحاري. جبال مهولة والحرارة بدت تزيد. نزلت من السيارة وفتحت الباب وأخذت أنزل الأقفاص حتى انتهيت.. أدار السائق حتى يعود.. وأنا ذهبت نحو العربية وقدمي كيس رمل، وأتمنى من كل قلبي أن أملأ عيني بنور وجهها.. أن أملس بيدي على وجهها.. ركبت جوار السائق، وهي تنظر حائرة وكأنها في ورطة.. أوقفت السائق واتجهت نحوها لأعرف ما بها..

- ما بك يا سيدة الحسن والجمال؟

- طلبت من أبي وأخي أن يأتوا بالحمير والجمال لأخذ هذه البضاعة.. ورغم ذلك لم يأتوا.. أكيد جرى شيء.

- أنا في ورطة، فالليل يقترب ولو ذهبت وحدي أخاف الطريق.

- قلت: لا.. أنا أوصلك.. وكأنه لا يوجد رجال.

ثم طلبت من السائق أن يذهب إلى أمي لكي يطمئنها عليّ..

حملت على كتفي خمسة أقفاص وسرت وراءها نخب في الجبال.. الخلخال يرن، وكعبها الأبيض الطريق يطول، وأصعد هضاب، وأنزل لحد ما عدتش قادر أتنفس، والجلابية بقت عوم من العرق. تعبت من الليل والست الصامتة.. فكرت أنها تكون من أهل الجن.

ممكن، أخذ عقلي يدور والهواجس والظنون تعصف بي. لحد ما لقيت ضوء.. فرحت، ونسيت التعب. لحد ما وصلت. فقابلني الأب والابنة الأخرى وصبي. حملوا عني الأقفاص، وتقدم مني الأب وقبّل يدي، وأخذ يشكرني على أنني صنت عرضه. وعلمت أن الذي أخرهم هو استيلاء أحد أفراد القبيلة على بعض الشياة وحمل؛ لكي يقوم بسقاية الأغنام من البير الوحيد في الصحراء الذي قام هو بحفره.. وكيف أنه أخذ يتوسل إلى شيخ القبيلة، ولكن دون جدوى. أخذت أقوم بحمل الأقفاص حتى وقت متأخر من الليل. ومن التعب نمت دون أن أدري بنفسي، حتى صحيت على كرباج الشمس.. غسلت وجهي ودخلت الخيمة؛ لكي أستظل بظلها فوجدتها قد حملت لي الأكل، وجلست جواري تداعبني وتتساهل معي في الكلام حتى أنني أخذت أغازل فيها.. وهي لم تكن ممانعة في أن أخطبها من أبيها. فرحت وقبّلت يديها ورأسها، وعلمت أن الدنيا قد دانت لي. ذهبت إلى العجوز الذي نظر إليّ في خبث وقال: أنت لك روحي هدية؛ نظير الموقف الذي عملته..

ولكن نحن بدو وأنت غريب، ويجب أن يكون مهر ابنته في غلو جمالها. قلت: وأنا موافق. قال: أنت يبدو بلا مال، وأنا لا أستطيع أن أزوج ابنتي مجانًا. قلت: نعم واللّه.. فقال: مهر ابنتي أن تعمل عندنا عشر سنوات. بهت، ورفضت، كيف أحتمل أن أظل في ظلها هذه المدة.. وكان عليّ أن أسير وأنا أبكي؛ لكي أهرب منها، ولكنها لحقت بي، وأخذت تبكي وتلومني؛ لأنني لا أريد أن أضحى من أجلها.. وأنها تحبني.. ثم أخذت تلاطفني وتُقبّل فيّ حتى وافقت، وأخذت أعمل طوال النهار في الرعي والسقايا والجز والبيع والشراء بأمانة حتى مر عشر سنين، وقد تعبت وذهبت إلى العجوز الذي سعد بي، ووافق على الزواج وتزوجنا ودخلت خيمتها، وشفت ليلة يا أستاذ.

كانت ترتدي ثوبًا من الصوف الثقيل الذي يخفي ملامح جسمها، جلست قبالتي تقطع اللحم من الشاة المذبوح وتضع في فمي.. ثم نزعت الثوب الصوف وجلست على السجادة.. فتركت الأكل وزحفت نحوها، أشارت لي بالتوقف. أخرجت زجاجة عرق، وأخذت تصب لي حتى انتشيت، فقامت ونزعت ملابسها وأصبحت عارية في قلب الخيمة، زحفت إليها ومسكت أصابع قدميها بفمي، وأخذت أمص إصبع إصبع. ثم لحست الساق والورك وما بين فخذيها وسرتها وثدييها. ثم طبعت شفتي على شفتيها، وغرقت في لذة كاملة حتى أذن الفجر، وكنت واقعتها خمس عشرة مرة، بواقع مرة لكل عام، حتى سقطت من الإعياء.. وظللت نائمًا حتى أفقت وجدت الليل يسقط على الواحة.. قمت أبحث عن امرأتي. لم أجد أحدًا في الصحاري.. أخذت أجري في المكان، لم يكن هناك أثر، حتى عين الماء جفت، صرخت وأنا وحيد في الصحاري، وأحسست ساعتها أنني يتيم وضعيف، وأن الوحوش ستخرج من أوكارها، وتهجم عليّ وتسحقني.

بدأ السباك يبكي وجسمه الثقيل يهتز، وأنا لم أستطيع أن أملك نفسي من الضحك. كان شكله مضحكًا.. خلاص، خلاص يا عم محمد، الله يخرب بيتك.

قالت لي سارة بعد ذلك ما لم يصرح به محمد السباك أمامي.. إنه كان يعيش مع والدته في غرفة في بولاق أبو العلا، والحمام مشترك.. وكان له عمة تزوجت من رجل يعمل بالبلدية.. وخلفت منه بنت ومات، وسرعان ما ماتت البنت هي الأخرى، ولما وجدت نفسها وحدها طلبت من محمد وأمه أن ينتقلا للعيش معها.. ووافق محمد وانتقل هو وأمه إلى العيش في إمبابة، في شقة غرفتين وحمام ومطبخ وصالة. أخذ يعمل محمد ويعود متأخرًا.. ثم سرعان ما تناثرت شائعة في الحي أن العمة حامل من محمد، وفي منتصف ليل عام ٨٣ خرجت العمة كتلة من النار تضيء شارع زكي مطر حتى سقطت جثة هامدة، وأغلق محمد الشقة ولم يرجع مرة أخرى، ينام في السوق على أي دكة خشبية حتى تعرف على المعلم شعبان، الذي رق له قلبه، وأخذ يعمل معه في السباكة. في هذا الوقت كان أبي مطاردًا، وأنا متزوجة وأعيش مع زوجي في أسيوط من شقة إلى أخرى.. أيام عصيبة أهدرت فيها دماؤنا.. كان زوجي ضعيفًا وهشا، ويعاني أشد المعاناة من الحياة التي يعيشها، كنت أحس به..

كان نبيلًا يرفض أن ينحني.. أن يظهر ضعفه.. وعندما كان يحس بوجود المخبرين في المكان.. يزداد توتره، يكبت أفعاله، وأنا أغير ملابسي، وأرتدي بنطلونًا، وأترك شعري، وأتزين؛ لكي أبعث رسالة لقيادة التنظيم.. ولم يكن يراني، ولكن أحس آلامه وهو يقرأ القرآن.. كان صوته مزيجًا من الشكوى والألم والرجاء والخوف والمحبة، لولا أنني فقط سأدمره كنت وقفت في مواجهته وسجنت المصحف، وقلت له: ابكِ، ابكِ ولكن كنت

أعلم أن كلامي سيكون بلطة في صدري. في المرة الأخيرة كان اليوم الأخير في القاهرة وبعدها سنهرب إلى الخارج.. حلق لحيته وشاربه، وظللنا فترة قبلها في القاهرة، في قلب القلب.. بمعنى أنه آخر مكان تبحث عنا الحكومة.. حتى اكتشفونا بالصدفة ونحن نسير في شارع محمد فريد، حاصروه وأنا جريت.. تركوني، رفع يده، ولكن الرصاصات تناثرت في جسده حتى أن مخه تناثر.. ثم أخذت تبكي.. أخذت أطبطب عليها.. حتى سكتت. لو ذهبت دلوقت ونظرت على حيطان بنك مصر - فرع محمد فريد، حتلاقي قطعًا متناثرة ملزوقة على الحائط..

- أنتِ غيرت الموضوع ليه؟

- موضوع إيه؟

- محمد السباك؟

آه.. لما محمد شاف إن محدش قادر يقرب من أمي وهي وحدها، والبوليس عارف من الأول أنها مالهاش في حاجة مالقاش داعي لحبسها.. لأنها كانت تفضي إيديها من الحكاية، ومكنش ليها في الموضوع من الأول، حتى إنها كانت بتصلي، وأول ما أبويا دخل السجن أول مرة.. بطلت على طول..

- أنا عارف.

- عارف إيه؟

- أبدًا، روحها مش روح واحدة متدينة.

- لا.. عادي.. دا كانت قبل أبوي ما يموت بتشرب سجاير.

- وكانت بترص حشيش للشيخ، وساعات تشد معاه.

- ما أعرف شدي..

- بترقص كمان رقص إيه.

- دا مين عرفك؟

- الشيخ..

- آه.

- وبعدين.

- دخل البيت بدون خوف، وكان يجبلها الطلبات ولحد ما اتجوزها.

- بس العلاقة يعني مش مضبوطة.

- حد عارف حاجة.. ساعات أقول: همّا زي بعض، وساعات يبقوا مش عارفة.

دخلنا الشقة، جلست أنا في الغرفة وهي في البلكونة نستمع إلى اسطوانات لمصطفى إسماعيل ومحمد رفعت وعبد الوهاب.

- كفاية كدة.

- أنا مرتاحة.

- البلكونة تجيب لك التهاب رئوي.

- يا سيدي.

- اسمعي كلامي.

ثم قمت وسحبتها من ذراعها وأدخلتها الغرفة، ثم خرجت أخذت أخطط لما يمكن أن أفعله في الغد حتى تعبت. أغلقت النور، واستغرقت في نوم عميق حتى استيقظت على صرخة أفزعتني، أخذت أفتح في الغرف حتى فتحت غرفة سارة. فتحت النور، كانت تصرخ في فزع شبه مجنونة، شعرها منكوش، وعينها تبحلق بصورة أفزعتني، والروب قد انحسر على جسمها فبدت شبه عارية.. ضمتها عليّ وأنا أهز فيها في خوف وفزع، وأنا أردد في آلية.. دا حلم.. دا كابوس.. اصحي يا سارة، بدت

تنتبه وخفت الصوت حتى سكنت، ثم فجأة أخذت تبكي بكاء مرًا.. بكاء قاسيًا، حتى إنني بكيت أنا الآخر، ترتعش وتلتفت مذعورة، مرددة عبارات حاولت خلالها أن أفسره أو أعرف ما تعنيه بلا جدوى، كانت شبه مسعورة حتى ضممتها عليّ، وهي تنتفض حتى توقفت عن الارتعاش. استكانت وأنا أملس على شعرها وجسمها، وبدأت أنتبه لثراء ثديها وحليب كتفها.. أخذت أسرح في شعرها وأظافري تخربش في فروة شعرها، كانت شفتي قريبة من أذنها، أخذت أمس رقبتها بشفتي، قبلت أذنها، رفعت رأسها، كانت غائبة تقريبًا عن الوعي، قبلتها في جبهتها وشفتيها، وضعت يدي على ثديها، خلعت عنها ملابسها وأنا غير قادر على إيقاف الجنون الذي أصابني حتى انتهيت، وعندما أفاقت ظلت ساكنة، ولم تفعل شيئًا سوى أنها سحبت الملاءة وغطت نفسها، وكانت تنظر إليّ نظرات غريبة، أرعبتني وأحسست بالجرم الذي فعلته.. كيف.. تركت السرير وظهر جسمها مرهلا، مثقلا، دخلت الحمام وتركت الدش ينساب عليها، ثم أخذت تنتحب.. قمت وأنا أحس بالخزي.. أضرب بيدي على الباب بجسمي حتى انكسر الباب، وجدتها جالسة جوار البانيو تبكي، والدش ينساب على البلاط.

- أنا آسف.

كان عقلي مشوشًا، لم أكن قادرًا على فعل شيء.. أتحرك في الحمام في هيستريا، والماء يتساقط عليّ دون أن أدري.

- لازم تسامحيني.

- أنا مش زعلانة منك.

- صحيح.

- آه.

- خالص.

- جسمي كان تعبان، كنت حاسة زي ما يكون كيس رمل.

- خلاص قومي.

سحبتها وقربتها من الدش، وتركت الماء ينساب عليها، وأنا أمسك الصابونة وأدعك في جسمها حتى انتهيت. أحضرت بشكيرًا وجففتها، وارتدت ملابسها، ولم أتركها إلا بعد أن نامت..

قمت باكرًا هذا الصباح، فتحت الشباك أنشد ضوءًا شفيفًا رائقًا في الغرفة، كنت سعيدًا وأحس بأن هذا النهار غير الأيام الأخرى التي مرت عليّ. غسلت وجهي وذهبت إلى سارة، لم ترد عليّ حتى إنني شككت في أن تكون غير موجودة في الغرفة، فتسرب الضوء وسقط على وجهها. فقط وكأنه ساقط من السماء على وجهها، فبدأ وضيئًا، كانت تقرأ التحيات، وعندما دخلت سلمت ولم تتحرك من مكانها ناظرة إلي. لم يتغير منها شيء، وكأنها مغسولة وآتية من زمن آخر بلا خدوش، بلا جروح، وحدها على قدرتها على أن تظل كما هي. جلست قبالتها وكأني تلميذ في حضرة ولي صالح. غير قادر على تحمل كل هذا الحضور، كل هذا البهاء. بدت عيني مملوءة بالدموع، سحبت رأسي ووضعتها في حجرها، وأخذا تلمس على شعري حتى سكنت، قمت، قالت لي:

- لماذا لا تعمل؟

- أي عمل؟

- عملك الذي تعرفه.

- أقول لك شيئًا: عندما توهمت أنني وصلت إلى كل مبتغاي في الإخراج، بدأ يخرج من وسط هذا اليقين بذرة شك في كل

الـذي فعلته، وأنني أخطأت الطريق، وأني كنت فعليًا غير قادر على البدء من جديد؟

- عارف أنت لو قدامك ألف طريق، وحدث أنك اخترت طريقًا مـن الألـف، في الحالة دي الطريق ده هـو طريقك. مش أنت اللي اخترتـه بإرادتك الحرة فقط.. لا.. الطريق كمان اختارك عشـان تـدوس عليه.. عشـان تتعفر بترابـه. ولم تتوقف فـي نص الطريق. خـلاص، لا شـيء، اختر طريقًـا آخر. بكل بسـاطة لأنك خدت من الطريق بقدر سـيرك فيه. لا ندم، لا منّ، أنت أخذت ولم يمنّ عليك أحد..

- أعرف من كده أنك حاتبدأ من جديد.

- طبعًا...

- إزاي؟

- شـوف أنا كل ما أمشـي في طريق أحس أن ده طريقي، أنا دلوقت حاخذ عيالي من جدهم، والحكومة وافقت على إعطائي شـقة في إسـكندرية من شـقق الأوقاف، ومعاش جوزي كاف لتغيير حياتي.

- وجدهم حايوافق؟

- دا حقي.. دول ولادي، وأنا عارفة أني حاخذهم.. أنا متأكدة.

- يا ريت أكون زيك كده عندي يقين

- عـارف أنت عامل زي «وحشـي» العبد قتل سـيدنا حمزة في غزوة أحد..

«وحشي».. كان عبدًا وأراد التحرر. أراد أن يكون حرًا.. كان يتـوق أن يكون مسـلمًا.. وحرًا؛ ولذلك وافق علـى قتل حمزة.. أن يقف في مواجهة حمزة، يعني أن يقف في مواجهة الموت؛ ولذلك

لم يفكر؛ لأنه كان يرى نفسه ميتًا، يشاهد نفسه ميتًا في وسط عالم يتوق إلى التحرر.. الجبال الجبارة تريد أن تتحرر، السحب القليلة التي في السماء، الأشجار القليلة، القطا، الوحوش، أشجار العكرش، الشوك، القنفذ، الأحجار، وأنا تحت أقدام النساء أعيش، أغسل أرجلهم بالخمر، وأشرب بقايا عرقهم، أكون أداة لذة، ولو مرة فكرت أن أتلذذ أجد الكرباج يطارد جسدي.. قتلت حمزة وتحررت، ورغم ذلك لم أشعر بالفرح، يكون «أنا» موجود في صحراء مكة.. أن أمسك حربتي، وأجري كصعلوك حر في مطاردة غزالة.. وشق بطنها بأظافري، وأخرج قلبها وأمضغه.. تظل طوال الوقت تتوق إلى الحرية، وعندما تأتي إليك لا تعرف ماذا تفعل بها. وتحس بالفراغ حتى تكون مسلمًا لم يعد يعني شيئًا بعد أن نظروا إليك على أنك تأتي إلى الإسلام فارًّا من القتل، وهم لا يعلمون أنني لم أعد أخاف مطلقًا من الموت، كنت لا مباليًا، أشرب الخمر وحدي في الليل، وأهرب إلى الصحاري لعل الوحوش تأكلني، ورغم ذلك أعيش.

يطاردني حمزة الوحشي في أحلامي، وأنني قتلته هباء، يطاردني كراهية الرسول أينما سرت، وكأنني منذور للعنة، وأن روحي لن تهدأ أو تستقر أبدًا، حاربت في كل الحروب، وأثبت جدارتي في كل المعارك حتى قتلي للكذاب لم يشفع لي، كلما وضعت رأسي على الوسادة يصلب أمامي مغروس فيه الحربة. ويقطر منه الدم.. أقوم من النوم مفزوعًا، أطارد حمزة بالخمر مجدفًا في حق حمزة واللّه حتى أسقط، والجدران تنضم وتتداخل حولي حتى تكاد تفتت ضلوعي..

- هل من الممكن البدء من جديد؟

- طبعًا.. مكن.

كانت تضع ملابسها في الحقيبة، ورغم أنني حاولت أن أثنيها عن مغادرة المكان، وأقسمت بالله أنني لن أعاود الاقتراب منها، رفضت، وطلبت مني أن أوصلها إلى بيت أمها حتى تأتي بأولادها وتسافر إلى الإسكندرية.. ركبت السيارة وسرنا صامتين حتى وصلنا إلى بيت أمها.. دخلنا ولم تسمح لي أن أذهب إلا بعد أن أشرب شايًا، لم يكن يوجد بداخلي كلام، فذكرت حكايات محمد السباك، فأخذت تضحك.

- دا كذاب.

- كذاب!!

- ابن كذاب.

وروت سارة حكايتها فنفتها هي الأخرى، وقلت: إن السباك حكاية أخرى تمامًا.

- احكي.

كان شغال سباك، وكان بيحب موزة بنت سعد الفران، والبنت يتيمة، وأبوها لم يتزوج، واشترى لها تليفزيون أيام ما كان أبيض وأسود، وكانت حكاية في الحارة، تلبس قصير زي صباح وإيمان، وتمشي وكأنها ماشية على قشر بيض زي مريم فخر الدين، وتقلد كل الممثلات وترقص زي سامية جمال، وكل ما يجيلها عريس ترفضه، لحد ما شافت محمد السباك، شاب قوي، حليوة، ومعها قرش، أحبها، وكانت قصة حب لحد ما اتجوزوا، هي خلفت ابن زي القمر، وبدأت تغيب عن البيت، لحد ما شك فيها محمد، وبقت حياته جحيم، أغلق عليها البيت وكل يوم يضربها لحد ما جه في يوم لقاها هربت، لف عليها القاهرة شبر، شبر، وأدمن الأفيون، وأصبحت حياته كلها عبارة عن عمل وشرب أفيون وسرحات لا تنتهي، وكان يتصور كلما دق

أحد الباب أنها هي، ولم يمل، ولم تعد أبدًا.

- وتتصوري هربت ليه؟

أكيد شافت فيلم هربت فيه البطلة، وظلت بعيدًا عن زوجها حتى مر خمس وعشرون سنة مثلًا، آه، أنا عرفاها، التليفزيون أكل عقلها خالص.

- اقعد يا شيخ.

- لا، شكرًا.

وسرت في شوارع القاهرة وحدي، أريد الآن صناعة فيلم يكون هكذا.

- الكاميرا تتحرك وتصور ما يتخيله.

ريح، عواصف، أمطار، برق، طير أبابيل، جراد.

كان بودِّي أن أكون البطل، ولكن أنا لا أصلح، أريد شابًا يؤمن بأن أبطال قصة حب جميلة ما زالوا يعيشون بين ظهرانينا، وأن الواقعيين، باردي الأعصاب، القتلة، السراقين، بائعي الأوطان، الخونة، لم يحتلوا الكادر بالكامل..

أما أنا فعلي أن أجري في شوارع القاهرة ألقي خطبة تهكمية وكأني أحد من أبطال شكسير..... أقول:

أيتها السماء، أيتها الرياح، صبي لعناتك، أنزلي عقابك الصارم بي، ادفعي غربانك، صواعقك عليّ.. إما أن أموت أو أفيق.

عبد النبي فرج